البجـــعة

هذه الترجمة الكاملة

لـ جوبرجر بيرجسون

Guobergur Bergsson

البجـعة

ترجمـة / منة الله يوسف

اشراف ترجمـة / خالد طوبار

الغلاف / هانيبـال – هيبو

سلسلة من كل بلك كتاب - كتاب من ايسلندا
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠١٤

ISBN: 978 – 977 – 6299 – 39 – 15

وكالة سفنكس
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد – القاهرة
ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أواقتباس هذا العمل أوأي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أوإليكترونية أوميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أوأقراص مقروءة أوأي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Sphinx Agency © 2014

This translation has been published with the financial support of Bokmenntasjodur

جوبرجر بيرجسون

البجـعة

ترجمة / منة الله يوسف

وكـالـة سـفنـكس

فتاة في التاسعة من عمرها تُرسَل إلى مزرعة بالريف لتقضى فيها عقوبة سرقتها المتاجر - عقوبة تتميز بها أيسلندا. تجد الفتاة في المناظر الطبيعية الخلابة والساكنة مجتمعاً يمزقه الصراع بين تقاليد عتيقة وصيحات جديدة. هذه ليست بأنشودة رعوية فلا مفر للفتاة من أن تواجه أحاسيس جديدة ومؤلمة وتجابه المجهول داخلها وداخل المحيط الغريب حولها فباستسلام الفتاة شيئاً فشيئاً للقيود والمعاناة الحتمية للحياة الريفية النائية تجد شيئاً من الحرية.

الفصل الأول

ما أن انطلقت العربة حتى بدأت تفتقد الفتاة الصخرة والبحر وازداد شعورها بالضياع ووصل إلى درجة الألم عند وصولهم إلى المكان الذي تنبت به الحشائش وتغرد به الطيور ويجرى فيه النهر وتسطع فيه الشمس فوق البرك والمستنقعات. تجرى قنوات الري بالماء بامتداد الطريق وتنمو الحشائش الطويلة على جانبيها. قررت الفتاة عندما جلست بجوار النافذة ناظرةً إلى الأراضي الخضراء تمر بها أن تفكر دائماً في البحر أثناء الصيف الذي أمضته وحدها آنذاك. هكذا كانت تفكر في الوقت الذي ظلت تسير فيه العربة مبتعدة عن البحر. ظللت السحب الأرض فجأة وخيم الظل الرمادي على الحشائش وتحول لونه لوهلة إلى الأخضر الداكن ثم استعاد لونه الطبيعي. تسللت ذرة من الأسى في الطريق المشمس وعظَمتها الظلال والسهول المنبسطة والفراغ. لم يكن الفراغ كفراغ البحر بل لأرض ظلت تتسع وتتسع فتعاقبت الأراضي وبدت العربة وكأنها لن تصل أبداً إلى وجهتها لكثرة الجبال والمستنقعات والأنهار. سارت العربة في طريق يتبعه طريق آخر - طرق لا حصر لها بعضها على جسور عالية فتحاول الفتاة أن

تختلس النظر إلى الماء وهو يصطدم بالصخور. بدا الماء عميق جداً حتى أصاب ذهنها بالفزع. أغمضت الفتاة عينيها واستشعرت البحيرة العميقة وفتحتهما في الحال لتمنع نفسها من الاختفاء في النهر تحت عجلات العربة وتحت الجسور.

علمت الفتاة أن من المفترض أن يكون بالريف نهرٌ أبيض ذو تيار قوى فحاولت في طريقها في العربة أن تصوره بحراً. لم يفلح الأمر، فالبحر واسع وأخضر ولا نهاية له أما النهر في مخيلتها فمجرد شريط طويل وضيق من الماء. فيختلف النهر تماماً عن البحر الذي لا يمكن اجتيازه. يمكنك عبور النهر عبر جسر أو مركب ناهيك عن الذهن رغم أنه في نهاية المطاف يصب في المجهول. كانت الفتاة تعلم أن النهر يكف عن كونه نهراً في آخر الأمر ويصبح بحراً مفتوحاً بل يتشرذم حسب اتجاه العواصف.

اصطحبتها أمها إلى المحطة عند مغادرتها وقالت "تلك هي المرة الأولى التي تغادرين فيها المدينة ذاهبةً إلى الريف ومبتعدةً عن والديك لذا حاولي أن تحيي الحياة هناك. التزمي الأدب وأحسني التصرف مع الجميع وستنسين ما فعلتِ وعندما تعودين سيكون الجميع قد نسوا ما فعلتيه أيضاً."

ثم احتضنتها وهمست "نحن ننعم بالنسيان كما ننعم بالتذكر يا عزيزتي."

قبل أن يذهب أبوها إلى العمل هذا الصباح قال لها وكانا لأول مرة قد ارتديا ملابسهما في الوقت نفسه "إذا تركت انطباعاً جيداً قد يسمح لك المزارع بأن تظلِ هناك

لتساعدينه طوال الشتاء وسيدفع لكِ أجراً."

ما أن نطق بالكلمات تلك حتى شعرت الفتاة وكأن فمها ملئ بحجر جاف أملس- حصىً عجيب يصعب ابتلاعه دون بذل جهدٍ عظيم.

ثم بدأوا الحديث بشكل عام كم ستكبر وتتحسن أثناء العيش في الريف وعن الهواء هناك وكم هو أصح من الهواء في المدينة وأن الناس هناك سعداء وودودين.

وقال أبوها "حتى وإن كان الوضع ليس كذلك لدرجة ما فعليك أن تعتقدِ بعكس الواقع."

سيطرت عليها صورة مبهمة وغريبة في مستهل الصباح للحشائش والحيوانات والجبال والناس وكأنهم يعكسون ضوءاً ما. كان ذلك إحساساً حاولت تجنبه مثلما حاولت تجنب البكاء.

شعرت الفتاة بارتياح وحزن في آن واحدٍ.

شعرت بذلك وهي في العربة أثناءً مرورها بالمنازل. ثم همست لنفسها فالرحلة كانت لحظة وداع لا نهاية لها "أبداً، أبداً. لن تمر العربة بهذا المنحدر مجدداً ولن أرى مرة أخرى هذا الطائر بنى اللون المحلق بعيداً ولن أمر بهذا الجبل أبداً. سأرى هذا مرة واحدة في حياتي - الآن وليس مرة أخرى."

تسلل إحساس غريب في عيني الفتاة بأنها تحتضر ببطء كلما مضت العربة في الطريق.

وإذا ما عدت وأنا أكبر سناً لن يكون الطائر ذاك هنا ليستقبلني. سيكون قد مات منذ زمن بعيد دون أن يعلم

أنني جلست هنا في العربة ذات مرة ورأيته. غالباً سأكون قد نسيت المنحدر هذا والجبل بل والبحر أيضاً. وفي طريق عودتي إلى المنزل لن أرى ما رأيته في الطريق منه لأن العربة ستسير في الطريق المعاكس للطريق هذا وسأرى الأشياء جميعها بصورة مختلفة. سأرى المنحدر منحدراً جديداً والجبل جبلاً آخر. حينها سأكون كبيرة وجميع الأشياء ستكون أصغر وأدنى مما هي عليه الآن عند مغادرتي. ستختلف العودة عن الرحيل حتى وإن ظل الطريق واحداً سيكون طريق الذهاب من الوطن والعودة إليه.

في الوقت نفسه بدأت الفتاة تودع عبر النافذة كل الأشياء التي تراها لآخر مرة. شعرت بأنها تذبل وتموت في ضوء الشمس وبعض السحب تندفع في السماء لتغطي اليابسة وكذلك مضت الفتاة بالعربة من أمواج البحر إلى التلال الخضراء الملتوية.

عندما سارت العربة بالبيوت الواقعة على أطراف المدينة أصبح المشهد ذكرى تمسكت الفتاة به ولكن سرعان ما تلاشى في ذهنها وبالكاد استطاعت أن تستحضر الصورة في مخيلتها وكأن البيوت والناس داخلها قد ماتوا عند مرورها بهم. مات كل شيء كلما مضت بعيداً. حتى منزلها في المدينة تركته عالقاً في الهواء كصورة مبهمة بعدما حل الريف مكانه في ذهنها.

كانت العصافير الطائرة فوق الحشائش خفيفة وصغيرة ليست جذابة كطيور البحر عريضة الأجنحة والثقيلة. كانت تطير فجأة بعيداً عن العربة مصدرة أصوات أقرب

هي إلى صيحات من أصوات الطيور الحقيقية. اختلفت تمام الاختلاف عن النورس الذي حمل المحيط في طيات ريشه يبعثره في السماء. كان النورس يطير في الهواء ضارباً بجناحيه بالطريقة نفسها التي يحمل بها البحر الأمواج الهادئة. كانت أعين النورس كالساعات التي لا تحدد وقتاً ولكن تلك العصافير الصغيرة السريعة لا تفكر. كانت كأحجار صغيرة يقذفها بوحشية كائن غير مرئي أو روح ما من الأرض.

كلما سارت العربة أصبح من الواضح أن لا طريق للعودة. اختفى ندى البحر من الهواء الذي دخل العربة عبر النافذة المفتوح نصفها. أظهرت بعض الأراضي علامات مبكرة بقدوم الربيع حيث اخضر لونها وحمل الريح نداً غير مالح وغريب يحمل رائحة تربة دافئة. على مد البصر لم يكن هناك سوى سكون الأرض ليس كالتنهيدة اللطيفة والغامضة التي يطلقها البحر حين يغطيه الربيع الهادئ بعد شتاءٍ من الأمواج المتلاطمة. تعود الحياة للأرض في الربيع لكن البحر يموت أو يدخل في سبات ويصبح كحيوان أزرق مائي دائم الحركة يرقد هادئاً. الأمر سيان فعيون البحر متحفزة للثورة والهديج إلى الشاطئ.

رأت الفتاة الحيوان ذو اللونين الأخضر والأزرق في خيالها لكنها لم تعرف لأي صنف ينتمي. كان هجيناً بين وحش وحيوان أليفٍ مخلص نتاج ماء وأحلام. سَهُل الإحسّاس بهذا الحيوان من رؤيته.

فجأة بدأت الفتاة تتذمر داخلها. شكت للأشياء كلها التي رأتها. شكت طويلاً في صمت وكفها على فمها وكأنها

تغني وراقبت الريف بما فيه من مزارع ومروج يمتلكها أشخاص بعينهم لا أحد غيرهم. كانوا يسمون بالمزارعين. لكن البحر تشارك فيه الجميع. لا يجرؤ أحد أن يقيم فيه أو أن يرسل حيواناته فيه لترعى. لا يقدر أحد على امتلاك البحر لأنه دائم التدفق إلى السماء ويعود إلى مكانه دون أن نراه عبر الشمس والأمطار.

"لا يمكن لشخص أن يمتلك البحر كما يمكن للحب ولا يستطيع رجل أن يمتلكك حتى إذا تزوج منك وأصبحت له وهو لك" قال والدها ذلك مرة.

تذمرت الفتاة في صمت وبالها منشغل بما أحست دون أن تصدر صوتاً ولك ظلت جالسة منتصبة الظهر والعربة تكمل رحلتها دون رحمة.

كانت العربة تتوقف أحياناً لينزل ركاب ويركب آخرون لوقت قصيرة. كانت الكلاب تجرى من المزارع إلى المنحدرات والمروج ليعضوا الركاب المترجلين من العربة أو ليحيونهم. لم تشعر الفتاه ببهجة عند رؤيتها الكلاب الطليقة. علمت أن أحداً لن يبتهج عند وصولها لوجهتها ولا حتى كلب.

من الواضح أن الرجل الذي استقبلته الكلاب بترحاب كان عائداً إلى وطنه. أظهر ذلك ابتسامته وهم يحومون حوله ولكنه أمرهم بالتوقف مراعاةً للمظهر العام.

هكذا اختلفت الأرض عن البحر.

علمت الفتاة أن إذا عادت إلى المدينة وسارت على الشاطئ فلن تأتى تسبح سمكة إلى الشاطئ تهز ذيلها

لترحب بوصولها. لا يرحب أحد بشخص يسير على شاطئ البحر ومن يشعر بالترحاب فإنه يشعر بذلك الإحساس في صدره عند التقائه بالمحيط الفسيح الذي تركه عند رحيله.

"ذاك هو الفرق بين البحر والأرض" هكذا فكرت الفتاة.

الفصل الثاني

شعرت الفتاة فجأة بضيق لا حدود له في صدرها دائماً ما يشرف هذا الضيق على التحول إلى دموع ولكنك تبقيه تحت سيطرتك والناس على مرأى منك وحولك. فتخفى التحول حتى تكون وحدك ولا يستطيع أحد حينئذٍ أن يرى كيف تغوص في أعماقك المظلمة بعيداً إلى حد ما عن نفسك وعن الآخرين. فتسمع وتسترق النظر في آن واحد. للسبب ذاته جلست الفتاة في صمت طوال الرحلة تستجمع ما نوت أن تستوعبه لاحقاً وتتخلص منه بالبكاء وشعرت أنها تسافر في قفص ذي عجلات.

شرع أحد الراكبين وكان يجلس أمامها في الغناء بصوت مرتفع عن الريف والشمس والتربة في الوقت الذي كانت تشرب فيه فتاة شقراء المرز. كان المشهد أمامها صوت وصورة كذلك الذي درسته في كتب الشعر والقصص بالمدرسة. كانت الفتاة في مشهد يصلح لقصائد الشعر. وما رأته عبر النافذة صلح لأن يكون خلفية لقطعة موسيقية لو أنها لم تكن مضطرة بأن تصل إلى وجهتها والتعامل مع مكان غير مألوف بالنسبة لها.

غطى الفتاة ظلال الجبل الذي اشتعل حزناً
عند مغادرة المرء مدينته للمرة الأولى وظلت الفتاة تحت الظلال حتى نهاية الرحلة.

توقفت العربة ونظر السائق وراءه إلى الفتاة نظرة خالية من أي تعبير قائلاً "هذا هو المكان الذي من المفترض أن تنزل فيه. هناك أحد في انتظارك."

مَا أن سمعت الفتاة تلك الكلمات حتى نظرت إلى الخارج ورأت المزارع لأول مرة. كان ينتظرها وحده في الطريق ولم يكن هناك أي منازل على مرمى البصر باستثناء عربة خلفه واختفت بيت تلين منخفضين إلى حد ما.

بمجرد أن نزلت من العربة ورجلاها متيبستان حتى سمعت أصوات العصافير والزرع. ملأ صوت الحياة كل مكان وسمعته لأول مرة من على بعد عند البحيرات والأراضي الخضراء وكأنه محمول من الاتجاهات جميعاً في وقتٍ واحد من الأرض ومن السماء عالياً. امتزج الصوتان في أذنيها واختلف عن صوت السماء وصوت المياه وهي ترتطم بالمنحدر. أغرق ذلك الصوت كل شيء بزئيره وخيم الصمت على الأرض في اللحظة نفسها. كان الصوت ذاته هو خرير البحر وظل الشاطئ هادئاً في صمته.

قفز السائق من العربة قبل أن تنزل الفتاة ورمى حقيبتها في عجلة من أمره من مقصورة الحقائب على جانب الطريق. كان متعجلاً في كل شيء. رمى السائق الحقيبة بقوة بجانب قدم المزارع. وقبل أن تحيي الفتاة الرجل نظرت إلي عينيه مباشرة كما أوصتها أمها قائلةً "انظري إلي عينيه مباشرة قبل أن تحييه فعيناك ليست بعيني لصة."

"ها هي الحقيبة" صاح السائق مندفعاً نحو العربة وانطلق بعيداً.

ارتدى المزارع ثياب العمل وهي بذلة زرقاء على طراز الماوذات سترة زرقاء باهت لونها عن لون البنطلون. كان ظهر السترة يميل إلى البياض فقد أفقدت الشمس لون الظهر والمزارع منكباً على عمله. ثم سألها "ألا تستطيعين حمل الحقيبة بنفسك؟"

أجابت "نعم ولكن ليس لمسافة طويلة."

كانا قد نسيا أن يصافحا بعضهما بشكل لائق وربما يكونا قد تصافحا في ارتباك عندما لمسا مسكة الحقيبة.

قال "إذن فأنت قوية"، ثم أخرج حبلاً من جيبه ولفه حول الحقيبة رغم أن قفلها سليم ثم حملها بيسر على ظهره بل رفعها على كتفيه.

وقال متبسماً وكأنه سعيد بإعطائه حمولة ليرفعها على ظهره "حسناً، ليست بثقيلة."

لم تكن الحقيبة ثقيلة ولكن ظل المزارع ينظر إلى الأرض وكأنه يراقب خطواته متأملاً كيف تسبق قدمه الأخرى لكيلا يتعثر على الطريق الممهد. لم يُعَرف نفسه لكن بدا أنه صاحب المزرعة.

قال "اتبعيني فالطريق قصير ليس بحاجة إلى سيارة. سنسير إلى هناك."

لم تتبعه بل سبقته قليلاً في بعض الأحيان ومرات أخرى سارت بجانبه تنظر إليه من وقتٍ لآخر وكان يلعق شفتيه حينها. كثيراً ما كان يلعق شفتيه الجافتين ولكنه ظل صامتاً وواصل السير. رأت الفتاة المزرعة على مقربة منها في المنخفض بين التلال على منحدر أو تلٍ معتدل وفجأة ساد

المكان صمت مميت. وزادت خطوات المزارع المتهادية والمتساوية على الطريق من وقع الصمت. ازداد نور الشمس أيضاً وأضاءت بأشعتها السكون. عندما نزلا من التل وأصبح الفضاء الفسيح أمامهما شعرت الفتاة بالاختناق في الفراغ أمامها. تسلل إليها شعور بالإدراك فالطبيعة ضخمة لأبعد حد أما هي ففي منتهى الصغر. وبالكاد كانت تتحرك رغم غياب خطورة حركة المركبات مما جعل المكان آمناً ومليئاً بالحرية. على الرغم من ذلك لم تجر لأنها علمت أنها الآن في فراغ وسط أناس سيقيدون حركتها بتكليفها مهاماً. لذا تركت المزارع يسبقها وسارت هي خلفه.

التقيا رجلاً في الطريق فتوقف المزارع وظل محنياً تحت الحقيبة وهما يتحدثان. رغم أن المزارع كان يتحدث إلى الرجل إلا أنه بدا وكأنه لا يتحدث لأحد أو كأنه يتحدث لأصابع قدميه أو للأرض. لم تفهم الفتاة شيئاً من حديثهما باستثناء الحديث عن الحيوانات. لم يتصبب المزارع عرقاً من الحمولة ولكنه كثيراً ما كان يحك ذقنه بطرف الحقيبة على كتفيه ثم يبدى استياءاً.

نظرت الفتاة حولها والرجلان يتحدثا. على طول الطريق كان هناك ترعة عميقة مليئة بماء بني اللون ولزقة على السطح. كانت التربة على جانبي الترعة يغلب عليها الحَمار. عندما أمعنت النظر حولها وجدت الفراغ ليس بكتلة واحدة ولكن تقسمه الترع. ولكنه ليس بمحيطٍ من المستنقعات والبرك وكأنه لم يقرر ما إذا كان بحراً أو أرضاً.

كانت أرضاً مبتلة وغادرة. كان الطريق وحده آمناً تحت قدميها وسط المستنقعات. كلما نظرت في جميع الاتجاهات كلما رأت الفراغ مزعجاً رغم انتهائه عند الجبال على مد البصر. لم يوجد عقبات تقف عندها الأعين والنظر ولكن صعب اجتيازها سيراً.

شعرت وهي تفكر في ذلك وكأنها ترتفع في الهواء أو تحلق في دوامة وسرعان ما سترتطم بالأرض وتُبتلع. شعرت بغثيان خفيف ولتضمن سلامتها قامت بحك نعليها في الطريق الذي بدا كخطٍ رفيع بين الطريق الرئيسي والمزارع حولها. ثم بدأ المزارعان يودعان بعضهما البعض وقال أحدهما "لعلك تراقب الحيوانات بدلاً مني."

وسأل فجأة "أتلك هي الفتاة القادمة للمكوث معكم؟"

أجاب الذي يحمل الحقيبة "نعم."

ذهب كل منهما في طريقه دون تبادل أي حديث آخر وقفز كلبٌ فجأة من مستنقعٍ وتبع الفتاة والمزارع. وسرعان ما ظهر الكلاب من أماكن عدة . بدا أحدهم يحبو لاهثاً من تحت حجرٍ وتبعوا جميعهم الرجل ذو الحقيبة وكان الكلب الذي أتىً من المستنقع مبتلاً ولاهثاً وموحل بالطين وتصرف وكأنه يمتلك المزارع الذي شرع يكلم الكلب ويؤدبه بلطف. تدلى لسان الكلب في بهجة والرجل يوبخه.

تملك الفتاة الملل وازدرت الكائنات تلك ذات الفرو. وبدأت النعاج الواقفة ترعى على جانب الطريق تنظر الواحدة منها تلو الأخرى إلى المزارع يمر بهم فصرخ قائلاً شيئاً ما إليهم وبدأوا في الحال في الثغاء والتغوط بينما

الكلب يهز رأسه في سعادة.

"هذه هي بهجة الريف الصحية والبريئة" هكذا فكرت الفتاة ولكن حتى العصافير الخجولة لم تبهجها. كانت تطير من العشب الشاحب ذي الحشائش الكثيفة الجافة وكانت تطير من كتل العشب على جانب الطريق لكنها روَعَت الفتاة.

أطلق الكلب أنفه للهواء الذي داعب شعره وسرحه إلى الخلف. استنشق الكلب الفراغ وأغمض عينيه.

قال المزارع "حسناً – وهو يلعق شفتيه."

بدا أن الكلب فهمه وشرع في النباح بشدة وبدأت الفتاة تتمنى لو أن الطريق لا نهاية له لما اضطرت لتركه والتوجه إلى المزرعة ولو أن لا نهاية له ولو أن رحلتها ما هي إلا رسم على لوحة يشملها والمُزارع والكلاب والشمس والنعاج والمزرعة والريف حولها. لو كان الأمر كذلك لمسحت الرسم في لحظة لكنهما كانا يقتربا من البنايات. لم يتبق شيء من الطريق بعدها ورحبت بهما امرأة يدها باردة ورطبة.

قالت "مرحباً. أأنت الفتاة الجديدة إذن؟"

وضع المزارع الحقيبة على الأرض وظل فمه مفتوحاً رغم أنه لم ينهج البتة. ظنت الفتاة أنه سيخلع القبعة ويحك رأسه ولكنه اكتفى بالتنهد وطلب بعض القهوة.

قال "آه، بالإضافة إلى بعض الأصوات."

سألت المرأة "لم تقلها بالسيارة؟" – وأخذت الفتاة إلى غرفة فيها سريرين. أشارت لأحدهما وقالت "هذا

سريرك."

قدر المزارع حجم الحقيبة ووضعها تحت أحد السريرين. أيقنت الفتاة أنها في الريف بالفعل فقد قالت أمها أن الحقائب دائماً ما توضع تحت الأسرة في الريف وعند إخراجها تكون مغطاة بزغب الأغطية. "هكذا كان الوضع حين عملت بالمزرعة ولابد أن الوضع كذلك الآن فلن تتغير هذه الحقيقة أبداً في الريف."

مرت فترة بعد الظهيرة بطيئاً وأمضت الفتاة معظم الوقت جالسةً على السرير. حاولت التنفس في هدوء لكيلا تفزع السكون حولها. بدا وكأن المزارع وزوجته قد ماتا فلم تجد لهما أثر. مر الوقت دون أي علامة مسموعة تنم عن حياة. ذهبت إلى النافذة بحذر ورأت الكلب نائماً وأنفه على قدمه. مر الوقت ساكناً. وعلمت بالنظر إلى ساعتها أن الوقت يمضي ورحلت الشمس عن النافذة وأضاءت جانبي المنزل. لم يأت المساء كالمعتاد ولكنها لم تأبه. ثم ظهرت فجأة زوجة المزارع وسألت في دهشة "أتفضلين الجلوس هنا بدلاً من الخروج حتى في يوم إجازتك؟"

تنهدت الفتاة وشعرت بارتياح لقدرتها على النهوض من السرير والتحرك بحرية.

بعد العشاء تحول المساء إلى فكي لهب فوق سقف المنزل ناحية الغرب. كانت الفتاة تحوم في المزرعة كاللسان الفاقد لشهية تذوق الطبيعة في الغروب. نظرت زوجة المزارع للفتاة بفضول عندما وجدتها جالسة على السرير مرة

أخرى.

داعبت الفتاة قائلةً "إياك وأن تلتصق مؤخرتك باللحاف فلن تكوني ذات نفع حينئذٍ وسأضربك بالسوط."

نظرت الفتاة إلى النافذة ورأت السكون في الخارج وسمعت صوت سيارة يخفت. خرج المزارع وزوجته إلى مكان ما وتركوا الفتاة بمفردها. ظنت دون تفكير عميق "ما يهمنيً هو أن المكان نفسه مُرَحِب."

ثم بدلت ملابسها وطافت في الهواء لفترة بين النعاس والإدراك. وعندما عادت الفتاة من التحليق وقبل أن تنام قررت أن تفكر في منزلها في المدينة. اعتزمت أن تبقى هناك في المستقبل أثناء نومها ليلاً حتى إذا اضطرت إلى العمل وهي مستيقظة نهاراً بل ستبقى هناك بقية حياتها.

لكـنها حلمت بشيء آخر مختلفٌ تماماً عما أرادت. تدحرج قرص زهرة غريب من باب منزل كبير مليءٌ بالبَكر بعد حدث ما غير مفهوم وحينها التقت برجل لم تره من قبل. ولم يحدث شيء آخر بعد ذلك أثناء نومها تلك الليلة.

الفصل الثالث

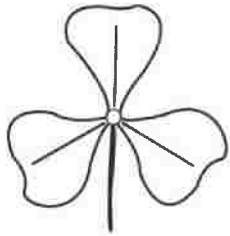

عندما استيقظت الفتاة لم ينم الضوء عن وقتٍ محدد في اليوم. لم يكن الصباح ولا المساء ولا منتصف النهار. لم تعرف أين كانت وإذا مازالت في الماضي أو الحاضر أو أي وقت آخر. كان النور غريب وكأنه من عالم مختلف عن الذي عهدته ومنه سارت امرأة دخلت من الباب إلى خزانتها.

ما لبثت أن أدركت الفتاة الواقع وانكمش كل شيء بداخلها. علمت أين هي ولاحظت رائحة الأرض والحيوانات والمنزل غير المألوف. كان ذلك في مطلع الفجر ولم تعتد الفتاة الاستيقاظ في وقت مبكر كهذا لذلك لم تتعرف على ذلك الضوء. أيقظتها المرأة وبعد الدهشة والارتباك والضوء الذي لا يدل على وقت محدد استيقظت قسوة ستكسو اليوم من الصباح إلى المساء.

ومن اليوم الأول شعرت الفتاة وكأنها لا تألف نفسها وكأن فتاة غيرها تقيم في هذا المكان. ولأول مرة عرفت كم هو سهل أن يخفى الإنسان مشاعر الفقد والأسى في ذهنه دون أن يلاحظها أحد. حتى حين كان الناس ينظرون فلم ينظروا لكي يروا ومن ثم أدركت أن تكون وحيداً هو أنت

تكون وسط أناس غرباء وأن تصر على أن تكون على هذا الحال.

بعد أن استيقظت وتناولت فطورها لم تكلف بأي مهام محددة ولكنها ظلت تحت مراقبة بسيطة. لم يسمح لها بالخروج وتوجب عليها أن تكون مستعدة للمساعدة في أعمال المطبخ. جلست هناك على دكة خشبية ولم تتحدث.

حتى مذاق الطعام اختلف عن الطعام في المدينة. كل شيء كان مختلفاً: النور والمذاق والرائحة والمشهد والإحساس. أرهق نصاعة اللبن الأبيض نظرها وأشعر خثارته الفتاة ببرد غير مريح. كانت الملاعق مصنوعة من معدن أكثر سمكاً من الملاعق في المدينة وكان لها مذاق قاس كالسم. لم يحيطها سوى البرد والصمت النقي ولكنَّ سادهما اضطراب ودخان. قالت زوجة المزارع "تناولي فطوراً جيداً وستشعرين بأنك أفضل حالاً."

كان في البيت رائحة كرائحة الكلاب. انبعثت روائح الحيوانات من كل مكان ومن زوجة المزارع ومن المزارع أيضاً. تذكرت الفتاة قول أمها "كل شيء في الريف له رائحة كرائحة مؤخرة الكلاب."

كان كل شيء داخل المنزل نظيفاً ومرتباً ولكن عندما استنشقت الفتاة رائحة المزرعة أصبحت على حافة الاختناق فتسللت إلى مدخل المنزل فاتحةً فمها وكأنها تنوى ابتلاع محيطها. كتمت الهواء النقي لفترة ثم أطلقته.

ولكنها استطاعت أن تتأقلم مع الوضع في الريف. فكرت "أربعة شهور لا أكثر." وعادت إلى المطبخ وجلست

على الدكة منتظرة شيئاً ما لم تعلم هويته وظلت منتظرة فحسب.

اندفع غلام بعد ذلك بقليل من المزرعة المجاورة ولما رآها قال في عجلة "تعالي لتلعبِ في الخارج فالطقس جميل اليوم."

كان الغلام مهندماً في ملبسه وكان وجهه كالكريمة المخفوقة ولكن خدوده حمراء اللونِ كالفراولة. حاول أن يبعث بابتسامة إلى كل شيء مبتهجاً في داخله على النحو الذي يبتهج فيه الأولاد الصغار السمينين دون الضحك علناً. كان السبب وراء سعادة الغلام الرفاهة المطلقة وكان يكسوه دهن ناصع البياض.

ردت زوجة المزارع سريعاً "لم تأت هنا لكي تلعب فمن المفترض أن تعمل."

ولتأكد كلامها أمرت المرأة الفتاة بإخراج القمامة. توقفت السعادة في قلب الغلام فجأة وخفتت ابتسامته. بدا غير مدرك للوضع وسارت الفتاة حوله صامتةً فدبت الحياة فيه مرة أخرى وأراد المزيد لكنه تراجع. استعاد سعادته مرة أخرى لكن الفتاة شعرت بفارق كبير بينهما عندما سألتها زوجة المزارع بحدة ساخرة "ألم يدفع والداك نقوداً لكي تمكثي في المزرعة؟"

استسلم الغلام السمين وملأ الحزن عينيه كما تلاشت الغمازات وصار لون الفراولة في خديه شاحباً.

لم تشعر الفتاة بأي اختلاف بينها وبين الأطفال الآخرين قط لكنها الآن أدركت الحاجز القائم وأنها ستظل كما هي

ليست كالأطفال الآخرين. ستظل وحدها كما هي مما جعل والديها غير مقربين إليها والوضع مماثل بالنسبة لأخيها وأختها وجدها وجدتها. كانت كلمات المرأة قاسية ومباغتة في الوقت الذي عانت فيه الفتاة في حمل القمامة عبر المدخل إلى الخارج. لو لم تكن تحمل شيئاً ثقيلاً لكانت قد تعثرت وسقطت بالتأكيد ولتبعثرت القمامة عليها ولشرعت في البكاء وحدها. ولكن كان صندوق القمامة ثقيلٌ جداً حتى أبقى التركيز والصراع ذهن الفتاة وجسدها متوازنين حتى لا يسقط منها. سيطرت الفتاة على انطباعات وجهها لتخفى كم كانت حزينة.

صاحت المرأة "انثري القمامة للدجاج بجانب تلك الرقعة المميزة. يمكنهم أن ينقروا فيها لاحقاً."

بدأ الغلام يلاحقها مرة أخرى وسبقها وقال "أعرف أين يمكنك رمي القمامة وسأريك المكان."

ما لبثت أن نثرت الفتاة القمامة أمام الدجاج حتى جروا نحوها. لم يحرك الغلام ساكناً والفتاة تنثر القمامة وقال فجأة "من الأفضل أن يكون المرء مثلك وليس مثلي أنا."

نظرت الفتاة إليه متعجبةً وأضاف الغلام قائلاً "لعلهم يعطونك بعض من المال في الخريف حيث إنهم لا يتقاضون أجراً لاستضافتك هنا. أما أنا فأعلم أنني لن أحصل على شيء."

نظرت الفتاة إليه.

وقال الغلام "ستكسبين بعض المال لأنك من المفترض أن تعملي."

ظلت تنظر إليه.

وقال متحمساً "سيكسب والداك مالاً بفضلك ولكن والداي يخسران بسببي وهذا هو الصيف الثاني الذي يخسران فيه."

أشاحت بنظرها وشعرت بالأسى على الغلام ووالديه.

وسألها "ألا ترين الفرق بيننا؟ ألا تستطيعين الكلام؟"

كان الدجاج يقرق حولهما. أوشكت الفتاة أن تفتح فمها وتتحدث لكنها لم تعرف بماذا تنطق فاكتفت بالتنحنح. حاولت أن تتخلص من الصمت بداخلها ما أن ركض الغلام بعيداً محدثةً نفسها "بالطبع أستطيع الكلام."

كان صوتها عادياً ومنخفضاً بسبب السعادة التي انتابتها على حين غرة. بدأن تقرق هي الأخرى وتتبارى مع الدجاج. أحياناً كانوا يقرقون في آن واحد وكأن هناك حيوانٌ داخلها بإمكانه القرق والخوار والثغاء والصهيل وكأنها تصدر الأصوات تلقائياً ثم وضعت كفها على فمها.

"جئنا بدجاجة جديدة" - هكذا قالت زوجة المزارع مرحاً عند عودتها بصندوق القمامة الفارغ وقالت "سرعان ما ستعتادين على الريف فالحيوانات مفيدة للأطفال."

صارت المرأة ودودة.

أغمت الفتاة عينيها لتستحضر صورةً ذهنية مغايرة لعطف المرأة. كانت الصورة لأمها وهي تغسل. انبعثت سحابة بخار كثيفة من باب الغسالة لتحجب رؤيتها أمها. هكذا احتفظت بصورة أمها وفتحت عينيها وابتسمت. من اللحظة تلك قررت الفتاة أن تتظاهر طيلة الوقت وأن

تلعب طوال الصيف وستلعب مثل الغلام ولكن بطريقتها التي تختلف عنه. إننا في آخر مايو وقد أرسلوها إلى الريف في مزرعة جيدة لأناس من شأنهم أن يسقطوا التهمة المنسوبة إليها وعليها أن تعمل مقابل استضافتها في المكان.

أخرجت الفتاة سماً خفياً من ذهنها وزوجة المزارع واقفةً أمامها تبتسم حتى سممت به البيت كله فسممت الغرف والناس والحيوانات والنباتات والهواء وابتسمت وهي تسأل المرأة "ماذا أفعل الآن؟"

الفصل الرابع

في اليوم التالي أرسل المزارع الفتاة إلى البركة لتحضر حصاناً داكناً على حد قول المزارع. لم تعلم الفتاة نوع الحصان ولكنها ظنت أن كلمة "داكن" تعنى لوناً ولكنها لم تسأل خشية أن يظنها المزارع غبية.

انطلقت الفتاة بطيئاً إلى المروج واللجام على كتفها. تلك كانت المرة الأولى التي تترك فيها الفتاة المزارع المحيطة بالمنزل وكانت تتوق إلى الانفراد بنفسها لعلها تعرف الإجابة بسهولة في الفضاء أمامها بدلاً من المنطقة القريبة من المنزل وإن كان المزارع يقصد لوناً فستعرف الفتاة الإجابة في لمح البصر.

داكنًا، ما هذا؟ – تساءلت الفتاة وهي على أتم استعداد لمعرفة الإجابة.

كانت الخيول ترعى على بعد في المزارع. بدت الخيول على بعد في ضوء الشمس وكأنها غير حقيقية وكأنها في عالم آخر فيه إدراك بديع داخل الفتاة كما بدوا لامعين. أحياناً بدت الخيول وكأنها مرفوعة فوق الأرض وكأن الهواء يحركهم في دوامة عنيفة فضية اللون تمسحهم أو تمسح

أجزاء منهم. ودون سابق إنذار تناثرت أرجل الخيول ورؤوسها في الهواء في السكون المموج. كان نور الشمس جلياً فوق العشب وفي السماء عالياً وكأن قبةً زرقاء سكبت نداً دافئاً على المكان.

ما لبثت تخطو خارج المرج إلى ربوة حتى بدأ كل شيء في التمايل والتموج تحت قدميها. لم تكن الأرض صلبة بل كهلام متماسك طفيف الحركة. اختفى نصف قدماها في وحل يميل إلى الحمرة وشمت الفتاة رائحة نتنة لصدأ حديد بالي ينبعث من الوحل. تناثر ماء الطين البني محدثاً صوتاً لاستقراره على حذائها. أنَت الأرض تحت قدميها ورذاذ الطين يهر بوحشية تحت نعليها وبدا المستنقع وكأنه سيبتلعها ولكنه لم يفعل فتوقفت قدميها عن الانزلاق عند عمقٍ محدد. كلما مضت في هذا المزيج الخاص من الهواء والطين والماء تضاءل خوفها وبدأت بعد فترة تستمتع بالمهزلة في الوقت الذي انغمست فيه قدماها على يد قوة مجهولة ولكن رفعتهما بقوتها وإرادتها. استسلمت التربة لها وتنفست بجهد حين قهرت الفتاة الطين. "بلوب، بلوب، بلوب" كان صوت الطين مع كل خطوة خطتها.

هكذا تهادت الفتاة على الأرض الرطبة وسرعان ما سأمت الأمر لعدم اعتيادها المشى على أرض لينة.

ظلت الخيول تبدو بعيدة مهما حاولت الفتاة في الإسراع وكأن الأرض المنبسطة والمموجة تبعد المسافة مع كل خطوة. بدا السراب موجاً في الهواء ولكنها استطاعت الرؤية منه فكم نقي كان وكم كان بريء وواضح. ظل سرب من

الذباب يصدر أزيزاً على العشب حول قدميها.

وصلت الفتاة إلى الخيول فجأة ولكن عندئذ ابتعدت الخيول بطيئاً أمامها مع أمواج الهواء. لم تتوقف الخيول عن الرعي ولكن نظروا إليها بازدراء مظهرين بياض أعينهم محركين ذيولهم باحتقار للفتاة وللذباب. شعرت باستهزائهم بها وباستيائهم من جهلها بالخيول ولعدم إمكانها التمييز بين ألوانهم. في واقع الأمر، بدا جميعهم اللون نفسه أو ألوانهم كألوان قوس القزح كلها عدا الأزرق. كانت قد رأت حصاناً باللون ذاته مرة واحدة فقط في صورة.

حصانٌ واحدٌ فقط لم يبتعد خجلاً فوقف ساكناً وبدا منتظراً شيئاً ما فاقتربت منه الفتاة مترددة. ثم رفع الحصان رأسه عالياً ناصباً أذنيه وشفتيه رطبة من العشب الأخضر ونظر إليها كما لو فعل كائنٌ مقدسٌ وظل واقفاً في مكانه حتى وضعت اللجام حول فمه كما كان يفعل المزارع حين علمها كيف تلجم حصاناً ووضع اللجام عليها ضاحكاً بتهديد وقال "هكذا سيلجمك مزارعٌ جيدٌ لو كنت فرساً."

انطبق اللجام دون جهد على رأس الحصان وكأنه سحر ولم تتعرقل الشكيمة في فم الحصان ودون أدنى مقاومة منه. بدا وكأن يداها قد تحولت إلى جناحين حين ألبست الحصان اللجام وكان فمه مليء برغوة ساخنة خضراء من أكل العشب. مضى الأمر بسلاسة وكان الحصان كطفل مهذب يحاول ارتداء ملابسه بنفسه. قادت الفتاة الحصان خلفها ممسكة بزمامه.

عندما وصلت إلى المزرعة كان المزارع في انتظارها وسألها

"لما لَم تمتطى الحصان؟"

ردت "أليس من المفترض أن نقود الخيول؟"

ضحك المزارع وظنت الفتاة أنه سيجعلها تعيد الحصان لأنها أحضرت حصاناً آخر. ولكنه لم يفعل وحاولت الفتاة حفظ لون الحصان لكي تعرف كيف يكون شكل الحصان الداكن. "الداكن هو ذاك اللون"- هكذا رددت مرات عدة. "ليس لوناً محدداً بل لون معين للحصانً، لونه رمادي يميل إلى البني." قالت في سرها "ربما الخيول ذات اللون هذا أسهل في الإحضار." كذلك بدو إلى حد ما وكأنهم يلبسون أنفسهم اللجام.

قال المزارع أن من الأفضل أن تمتطي الفتاة الحصان ليرى إن كانت تستطيع ركوبه فرفعها على ظهر الحصان.

ماذا أفعل الآن؟

جلست الفتاة خائفة على ظهر الحصان وهى ترتعش وشعرت وكأنها على مسافة غير معلومة من كل شيء كالحلم ولكنها أدركت القليل وشعرت بدوار لكنها ابتهجت وشعرت بالانتصار. ظنت للحظة أن معدتها ستنزلق من فمها كبالون بنفسجي فارغ الهواء. ظنت أن لابد وأن سمكة تندفع في أحشائها فحتماً شعرت بذيل السمكة يتحرك مصدراً أنيناً فلم تعرف السمكة من أي ناحية تخرج.

فجأة دون أن تعلم السبب غرست الفتاة قدميها في جانبي الحصان الذي انطلق يجرى على المنحدر وسقطت من فوقه. دارت أجزاء من حياتها في دوامة أثناء سقوطها: المنازل

على الشاطئ والبحر وأصدقائها. اسودت الدنيا أمامها وسقطت على العشب في عالم الحيوانات. في آخر الأمر توقفت عن التدحرج لا إرادياً فوق العشب البارد وتمددت على ظهرها تنظر إلى السماء عالياً. وكأنها في غشية راودها أنها ماتت للتو وكانت تنظر للمرة الأولى إلى الخلود الأزرق الباهت فيه بعض السحب ولكن في تلك اللحظة حملها المزارع لتقف على قدميها وأخرجها من حالة السلام تلك.

سيعلمك ذلك الموقف أن الحيوانات حساسة. يجب أن تعتادي عليها.

لم تعانى الفتاة من أي إصابات وتمكنت من الوقوف على قدميها. حتى رقبتها كانت بخير فقال المزارع "لا، رقبتك لم تنكسر. لا يكسر الناس عادة رقابهم إثر السقوط من الخيول بيد أن أحياناً يحدث ذلك لكنك صغيرة جداً وعظامك لينة."

ولم تطر رأسها!

ابتهجت زوجة المزارع لرؤيتها ورحبت بها وكأن سقوطها من الحصان أعطاها صلاحية للحياة في المنزل هذا. في ذلك المساء عندما ذهبت للنوم لم يختفي كل شيء حولها في ضباب عكس ما حدث في الليلة الأولى لها فلم تكن قد نامت في مكان غير مألوف بالنسبة لها من قبل.

شعرت بألم ولكنه كان عذباً. ما لبثت أن وضعت رأسها المرهق على الوسادة حتى امتزجت بنَفَس أحدٍ لم يصل بعد ولكنه سيأتي في اليوم التالي وبلا شك سينام في السرير الآخر مساء غد. كانت قد سمعت المزارع وزوجته يتحدثان

عن الأمر. كانت تفكر في الأمر هذا ولم تعِ حين أمزجها النوم بالهدوء خارج النافذة وبالبرد والعشب والنسيم.

شعرت وكأنها ترقد مستيقظة في نومها أو ربما النوم كان نوع من اليقظة. يقظة رقيقة ليست كتلك التي تستيقظ عليها وتخفت بمرور اليوم. اختفت رائحة الكلاب النتنة المزعجة. لم تصح من النوم خائفة من أن يكون الذباب اليقظ حائماً في غرفتها في الشفق ومستقراً بأرجله المدغدغة على فمها وأنفها. كان الذباب قبل ذلك يشعر الفتاة بأن الليل طويل وقصير في آن واحد بسبب مضايقتهم لها. كانت رائحتهم بول كلاب وبقر. الآن لم يسمح لها الإرهاق بملاحظة وجودهم. ذاب جسدها في النوم وسبح فوق الأرض والمروج والجبال حتى تركه الإرهاق فاستعاد حجمه الطبيعي مرة أخرى. ثم حلمت بأن حلم يخرج من جسدها. حاولت إمساكه بأصابعها بسرعة وشعرت بشَعر طويل أمام جسمها في كل مكان في فُرش عملاقة. ونما الشعر سريعاً فغطاها بأكملها وكأنها ورم في كتلة الشعر وفكرت في يأس "لن أستطيع الفرار من هنا أبداً."

استيقظت تلهث في يوم جديد ولكنها لم تكن متعبة على الإطلاق. تحسست جسدها بحذر بحثاً عن الشعر ثم أدركت عندما رأت نور الصباح أنها فعلاً مستيقظة ولم تكن في حلم.

الفصل الخامس

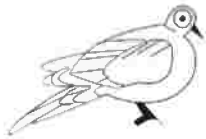

أثارت العصافير بداخل الفتاة شعوراً من التعجب والخوف وكانت الأرض تفسح لها طريقاً تمشي فيه فتقذف الأرض الطيور فجأة في الهواء من تحت قدميها لكيلا تتعثر فيهم. وفجأة ودون سابق إنذار ألقت عليها الطيور بأجنحتهم المرفرفة بحدة وابلاً من الحصى أصدر أنيناً وحاولت الفتاة تجنب ذلك الوابل اللطيف. بمجرد أن اعتادت الفتاة الأمر كانت تقفز وقلبها ينبض بسرعة عند انطلاق العصافير من مخبأها ولكنها كانت تستمتع بالشعورين في الوقت ذاته حتى بدأت هي تبحث عنهم. كانت ألوانهم مشابهة للون الأرض مما جعل الفتاة تلاحظهم فقط عند الطيران. وصوت عصافير الأحجار وهي تئن أثار في الفتاة بهجة وفضول وتوق إلى معرفة أماكن أعشاشها وكشف سرهم لكنها لم تفلح في العثور عليها.

لا تبنى العصافير في الريف أعشاشها في مكان واحد السنة تلو الأخرى كما تفعل الطيور في المدينة. فالطيور هناك في مكان محدد إما على الأشجار أو في فتحات في الجدر ففي المدينة أماكن لا حصر لها تختبئ فيها العصافير وكان العشب ينمو على الأعتشاش مغطياً إياها.

عندما كانت تسير في الحقول الواسعة كان إحساس كريه بالدغدغة ينتابها فنصل الحشائش الشاحبة اللون يخرج من كتل العشب متاخماً للصوص كثير الحركة. كانت الفتاة بالكاد تضع قدماً على الأرض وكانت تشعر بدغدغة في جسدها وإثم سحقها بيضة عصفور أو هرس صوص صغير ذو ريش خفيف تحت نعلي حذائها. رغم ذلك وكما هو الحال اعتادت الفتاة إحساس قدميها يغرسان في العشب الشاحب كما فعلا من قبل في الوحل وربما سحق بيضة أو صوص كالعجين.

بدت الأرض في الريف غير مستقرة تحت قدمي المرء كما هو طبيعي أن يعيش الإنسان عليها ويموت فيها.

كان عليها أن تتكيف مع أحداث مفاجئة متعددة في فترة وجيزة. استغرق النوم بشكل طبيعي فترةً فكان اتجاه سريرها مختلفاً عن الآخر في منزلها. أربك ذلك جسدها ولم تعلم في أي اتجاه تنظر عند النوم. اضطرب ذهنها لاختلاف اتجاه الأحلام.

أول ما فعلته الفتاة عندما خرجت في اليوم الأول أنها حاولت تحديد الاتجاه الذي ستنظر إليه عندما تفكر في الوطن وترسل أفكارها فيه ولتتأكد من وصول الأفكار إلى وجهتها. كان الاتجاه الجنوب الغربي لكنها لم تستطع رؤية الطريق كاملاً. رأت فقط جزءاً منه فعلى الضفة الأخرى من النهر جبلا عالياً أعاق أفكارها وحجب رؤيتها.

كان الجبل بلا شك أعلى مما بدا وغطت قبعة من السحاب الأبيض الرمادي قمته. لم يجب أحد عن تساؤلاتها

حول الجبل ولكن قال أحدهم لها أن في قمته بحيرة كبيرة مثل كثير من الجبال الأخرى في المنطقة يربط بينها أنفاق لأنهار تحت أرضية تجرى فيها. وكما تروي الحكايات المأثورة يسكن الجبال وحش يمضى بينها ويعيش في أعماق البحيرات ويمكنه السباحة في هيئة بجعة على سطح الماء الهادئ في السكون المطلق في الأراضي الجبلية.

اعتاد السكان المحليون الذهاب إلى الجبل مرة كل صيف أول شهر أغسطس أملاً في رؤية البجعة تخرج من الأعماق تكسوها النباتات والطحالب إلى السطح وهي تغنى صفات الشخص الذي أمسك بها ومصيره. لم يعبأ الآن أحد بالصعود إلى البحيرة وإلقاء شيء فيها وحبذا لو كانت وردة أو حجر من مكان سكنهم ليعرفوا سرها الأبيض والشيطاني ومن ثم تكشف البجعة أسرار الأناس الآخرين.

قالت زوجة المزارع "قد بلت حكايات ربات البيوت العجائز تلك ولكن الأطفال يستمتعون بركوب الخيل قرب انتهاء الصيف حتى ولو ليشعروا بالخوف في الخارج وسط الطبيعة."

أصابت تلك الكلمات الفتاة بتقلص في صدرها وباتت تنتظر يوم الرحلة تلك. علمت أن الرعب يأتي بنشوة عظيمة عندما يمر فارداً جناحيه اللزقين من جسدٍ متيبس. ما أجمل هذا التناسخ! لذلك كانت تستمتع بالسرقة كثيراً وبخاصةٍ من المحال وقلبها ينبض عالياً ثم تبقى وحدها مع غنيمتها في مخبأ دون الشعور بالأمان التام. كان الأمر مثل

تخيل حرب كونية وميتة بشعة أثناء الاستلقاء على سرير مريح. لم تولع الفتاة بوالديها كما ولعت بمشاهدة أفلام الرعب على التلفاز أو برؤية أشخاص مرعوبين يجرون وهم نصف عراة ويبكون في شوارع المدينة المبتلة والمدمرة والمحترقة في جريدة الأفلام.

لكن ربما لم ينصب ولعها على شيء بذاته.

قررت الفتاة أن تتعلم الجلوس على الخيل سريعاً حتى تتمكن من الذهاب إلى الرحلة مع الأطفال وانتظرت في ترقب اليوم الذي سيذهبون فيه إلى الجبل. عادةً ما يتلون السحاب باللون الأحمر فوق الجبال في المساء. كانت تتخيلهم الفتاة كالركام فوق الأرض. شعرت بفقد وتشابه الشعور ذلك باللانهاية قبل أن يسود هدوء الليل حتى بدا وكأنه يهدد الكلاب فشعروا بالخوف من هدوء الأرض وسكينتها وراحوا ينبحون ويهرون دون سبب خائفين من وقت لآخر. كان نباح الكلاب في المساء كالقصيدة المرتعشة لليل الذي حل بريئاً ومتأملاً وشفافاً مرتدياً ستاراً خفيفاً.

شابه الليل في هذا الوقت من السنة فكرة خاوية لانهاية لها. كانت ذكرى فارغة لا طائل منها عكس ما عزمت أن تكون وكانت ضرورية أثناء النهار وكان لكل شيء في مكانه غرض. كان الليل مجرد فكرة ولم يتعد ذلك المفهوم فكان يخيم بتألق ليلي على العالم بأسره. وظل الليل يتدبر فكرته الخاوية والشفافة عن نفسه حتى أتى الصباح عند شروق الشمس فوق الأراضي المبتلة من الشرق رافعةً تدريجياً البحيرات من الأرض الصلبة لتبد خارقة للطبيعة.

تلاشت فكرة الليل وحان الوقت لتنحية التوافه والتخلص من تأثيرها والذهاب لبذل جهد بدني شاق.

ساقت الفتاة الأبقار في الصباح الساطع وسط بقع العشب الذهبية اللون والخضراء والذباب الصغير غير المؤذي يحوم. تثاءبت والذباب يئز حولها والأبقار تحرك ذيلها في تناغم لتتفادى ما يقطر منه وبإرهاق بسيط حاول أن يشعرها بالإنهاك لكي تنام مجدداً وسط العشب أرهقت الفتاة ذهنها في التفكير لم يشبه سبخ الأبقار شرائح حمم ملتهبة صغيرة الحجم وبنية اللون. حتى الرائحة شابهت رائحة الأحجار التي سوتها الشمس بين طحالب البحر المتعفنة.

لكل مكان رائحة تميزه حتى لو لم تتغير الرائحة. تهادت الأبقار وسط المروج وتهادت الفتاة معها تفكر في خيالاتها السخيفة فرأت أن من المفترض أن يغطي الصوف الأبقار بدلاً من الجلد.

ولتضيع الفتاة الوقت جاءتها فكرة وهي البحث عن ما إذا كان سبب تسمية نبات الخشخاش بزهرة الأحلام بسبب وجود حلم محدد في النبتة نفسها. لتكتشف الأمر قطعت بعضاً منها وانتظرت قدوم المساء في حماس. قبيل الخلود إلى النوم أكلت الفتاة النبات في مخبأ وذهبت مباشرة لتنام وتستقبل أحلام النبتة تحت لحافها. هبط عليها للحظة حلم رائع عن شيء مبهم وكأنه منسوج من شبكة معشقة ثم تلاشى ولم يعد مهما تمددت الفتاة في التجويفات بين العشب تمضغ زهرة الأحلام وتأكلها أملاً في استرداد الحلم.

لكن عندما نظرت الفتاة إلى الأزهار حولها شعرت بسعادة أقرب هي إلى النعاس. عرفت أسماء بعض الأزهار فقط. تعلمت بالتدريج أسماء الأزهار الأكثر انتشاراً وبمعرفتها تلك صارت الأزهار التي تجهل اسمها الأجمل في عينيها. فإذا وجدت أزهاراً جميلة لا تعرف اسمها حفظت مكان الأزهار جيداً في ذاكرتها حتى تعود مرة أخرى لرؤيتها ولكنها لم تجد المكان ولا الأزهار في اليوم التالي. إما أن الأزهار كانت تعيش ليوم واحد فقط أو أن بمقدورها تغيير شكلها بالليل والاختباء من الفتاة حتى لا تقطفها. ثم أدركت كم أن كل شيء غامض في الطبيعة وكم أن الأشياء مركبة ومستترة.

تجاهل عامل المزرعة الذي ذهب للعمل هناك كل شيء باستثناء عمله رغم أنه أمضى عطلات الصيف عدة هناك وكذلك فعلت الفتاة هي الأخرى. واستمعت له وهو يتحدث مع المزارع وزوجته دون تكلف. أحياناً ما كان يشاهد في صمت التلفاز معهم وكان يعرض باستمرار مدن محطمة وأطفال يجرون وسط الركام. حسدت الفتاة الأطفال لما لديهم من مخابئ لا حصر لها كالكهوف الغامضة حيث يلعبون ويختبئون وبلا شك كان في الأماكن تلك أموات وجثث وأشباح.

قالت زوجة المزارع "يجب ألا تشاهدي تلك المشاهد المرعبة فهي لا تناسب الأطفال. كان من الأفضل أن تقرأي عن شيء جميل في كتب الأطفال."

كانت القراءة آخر ما تود فعله فإن لن يسمح لها بمشاهدة

تلك المشاهد على التلفاز ستتخيلها أكثر ترويعاً فستتخيل أطفال يجرون وعروقهم تنزف من أجسادهم والدماء تسيل منهم في كل مكان وسط البيوت المحترقة. كان كل شيء رائحته دم محترق. تمددت نصف مشلولة على سريرها تفكر في الأطفال العاملين بالمطافئ وخراطيم المياه ملطخة بالدماء والماء يتدفق منها حتى يرجع المزارع وزوجته لو كانا قد خرجا لتفقد الأحوال مع عامل المزرعة في المساء بعد العمل. ثم غيرت ملابسها في صمت وغطت في نوم هادئ في تألق الليل.

حاولت الفتاة قراءة كتاب إذا كان التلفاز مغلقاً ولكن استغرق قراءة الكتاب وقتاً طويلاً لذا استسلمت للإسهاب الرشيق الذي عصف بذهنها فإن حاولت استعجال الأحداث لتصل إلى جزءٍ مشوق منها فتتخطى بعض السطور فتتفكك الأحداث وتصبح القصة غير مفهومة ولكن غالباً ما كان هذا الجزء الأفضل. وإذا سبق ذهنها الأحداث تكتشف أنها مملة عما توقعت بعد بذل جهدٍ مضنٍ لقراءة كلمات لا حصر لها وسطور مملة.

كان الكتاب الذي حاولت قراءته يحمل عنوان "جزيرة السعادة" وشغل الكتاب بالها لحد كبير فكانت تسبق الأحداث وتغير فيها كما ارتأى لها. كانت الزوجة تسألها من وقت لآخر عما تقرأ ولما كانت الفتاة تجيبها قدر استطاعتها كانت الزوجة تقول في دهشة "نعم ولكن هذا غير وارد بالكتاب. لقد قرأته بنفسي."

ازدادت الفتاة ارتباكاً كلما تذكرت شيئاً مغايراً تماماً لما

قرأته. وأخيراً، تركت الكتاب مقتنعةً بأنها لا تعلم القراءة صحيحة. لم ترد أيضاً أن تتعلم القراءة بطريقة صحيحة بعد أن أخبرتها الزوجة عما يدور حوله الكتاب. لعلها أمسكت بالكتاب لترضي زوجة المزارع بينما كانت تحملق في السطور بكسل أو تتظاهر بقراءتها. لكنها قررت ألا تقرأ شيئاً.

سألها المزارع "ولكنك تستطيعين القراءة؟ أليس كذلك؟ معجباً بوضوح بحقيقة أن الفتاة تقرأ أو بالأحرى تبدو وأنها تقرأ ولكنها تتذكر شيئاً آخر بخلاف ما قرأته." عزم المزارع أن يعلمها تذكر ما تقرأ ولكنها شرعت في البكاء عند استفهامه منها.

جعل المزارع الفتاة تقرأ بصوت عال

وكذلك فعلت كارهةً ثم سألها وتذكرت القصة بوضوح ولكن عند قراءتها في صمت أو دون إرشاد عادت القصة التي ألفتها في ذهنها دون أن تدري. كان الأمر غريباً مما جعل المزارع يتلوى ضحكاً فأحياناً وجد نسختها من القصة أفضل ولكن من جهة أخرى كانت خاطئة بمقارنتها بالنص الأصلي.

وقال "إنك حتماً تتأتين من عالم آخر بعد القراءة."

لم ترد الفتاة.

ثم سأل بحذر "هل تختلف قراءتك لنفسك عن قراءتك عالياً للآخرين؟"

أجابت "نعم. ولكن بدأت تشك أن ما تقرأه ثابت لا يلعب الغمضية معها كالجمال والأزهار التي لم تجدها قط

بين العشب في اليوم الذي تلي رؤيتها لها."

قال المزارع "الهدف ليس القدرة على القراءة أو قراءة الكتب فحسب بل القدرة على تكرار الأشياء صحيحاً ومعرفة الصواب من الخطأ. يبدو أنك لا تعرفين ذلك. لكننا نأمل أن تحل المشكلة وستتعلمين الفرق بين الصواب والخطأ وإلا ستكون كل أفعالك خرقاء."

بدأت الفتاة تبكي مجدداً.

صُعِق المزارع عندما امتحن الفتاة عدة مرات واكتشف أن عند سؤالها فتكرر صحيحاً على قال حتى بعد اليوم الذي قرأ لها عالياً وقرأت هي له ولكن كما سبق لم يتعرف أحد على الكتب التي قرأتها لنفسها في صمت.

"إنك قارئة جيدة" - هكذا قال المزارع - "لعلك تقرأين قصة في ذهنك مغايرة للقصة تلك المكتوبة في صفحات الكتاب وتعجز القصة عن إيجاد طريقاً وسط الأشياء الكثيرة التي في ذهنك. عادة ما يكون سكان السواحل كذلك."

ما أن قال هذا حتى تصورت البحر اللامتناهي أمامها وصاحت بعنف "نحن لا نحتاج القراءة."

"لم لا؟" سأل المزارع.

لم تعرف السبب ولم يكن ضروري.

وسألها "أتريدين أن تكوني غبية؟"

عضت الفتاة على شفتيها وطرفت عينيها وتنحنحت.

قال "إنك تتنحنحين ولكن في الحياة ذلك غير كافٍ

ليعين فمك وذكائك إلا إذا كنت كسولة أو غبية وغير قادرة على الإمساك بزمام الأمور."

الفصل السادس

أتى الصباح ويغلب عليه النعاس فوق العشب رغم أن نوره الساطع أبعد الظلال جميعها عند استيقاظ الفتاة. بدا النور الساطع على المزرعة آتياً من اتجاهات عدة وكأنه من نور مختبئ في الفضاء وليس من الشمس مباشرةً.

شعرتْ الفتاة مهددةً من النور شديد السطوع الذي أعماها فأرادت الذهاب إلى الظل في حظيرة الأبقار. شعرت الفتاة لوهلة بظلام هادئ ومريح في عينيها عندما دخلت في الظلمة وكأن نفس الحيوانات الخرقاء الرطب يئز في المكان. آثرت الفتاة حتى الآن الاختلاط بالحيوانات عن البشر. كان فضول الحيوانات وحك فمهم الرطب في التراب أكثر آدمية من تجاوزات البشر وتطفلهم. خارت الأبقار عالياً بعد تحريك فيهم الرطبة تجاه الفتاة مدخلين ألسنتهم الحمراء المائلة للبياض داخل ثقبي أنوفهم وكأنهم يتذوقون رائحة الفتاة. فكرت الفتاة "ليتني أستطيع العيش داخل بقرة." كانت رائحة الأبقار ما ينفر الفتاة منها قليلاً فكان يذكرها برائحة ملابس تحتية متسخة.

بمجردة أن دخلت الفتاة حظيرة الأبقار استشعرت أن شيئاً ما غريب في المكان ولكنها لم تر شيئاً. قامت بفك حبال الأبقار في المربط الأمامي وضوء الفجر المتسلل من باب الحظيرة يعمى عينيها فخرجت الأبقار تتهادى على حوافرها الصغيرة والتي تبدو غير قادرة على تحمل أجسامها الثقيلة. ولما ذهبت الفتاة لترى البقرة الأكثر غرابة والتي لم تلازم مجموعة الأبقار الأخرى قط رأت في ذهول رأس

مغمضة عينيها تغطيها مادة لزجة في مؤخرة البقرة. ظنت الفتاة لوهلة أن البقرة سُحِرت في الليل لتصبح برأسين وأن الرأس تلك التي في مؤخرتها ميتة. كانت الفتاة قد سمعت من قبل في المذياع وفي بيتها حكايات عن أبقار تتحول شكلها. حتى أنها قرأت عن ذلك الأمر في قصص الأطفال وسمعت أناس يتحدثون عن ذلك أثناء إقامتها القصيرة في المزرعة. لعل التحول الدائم للإنسان والحيوان في الريف جعل الفتاة تلاحظ أن الواقع يجب ألا يُسَلم جدلاً. نظرت للحظة إلى الرأس الميتة المتدلية. أدارت البقرة رأسها بهدوء لترى كيف حال الرأس الخلفية. ذهلت البقرة لما رأت الرأس الميتة وكانت حتماً خائفة لأن بياض عيني الرأس الميتة كان غالباً. لم تصدق البقرة ما رأت في حقيقة الأمر وخارت إلى الرأس لتعيدها إلى الحياة. ثم نظرت إلى الفتاة تستغيث بها. رأت الفتاة الرأس الخلفية تفتح فمها أو ربما حاولت الخوار ولكن الصوت كان ضعيفاً جداً. كانت الرأس الخلفية أصغر كثيراً من الرأس الأمامية وبدت صلعاء تحت المادة اللزجة.

حدقت الفتاة في ذهول إلى البقرة ذات الرأسين وفى الوقت نفسه أدركت أن الليل مر غريباً وأن النور على الغموض ذلك الصباح.

دون مزيد من التفكير جرت الفتاة لتجلب المزارع الذي أسرع إلى المكان وجذب فم الرأس الخلفية بيديه دافعاً البقرة بقوة بقدمه اليمنى غارساً اليسرى في الروث ثم أحكم الشد بقوة حتى احمر وجهه وحول فمه وعينيه.

نظرت البقرة إلى جانبها مرة أخرى تحت تأثير الشد هذا وكسا وجهها انطباع بائس. لما شعرت بحركة المزارع خارت ثم لفت لسانها وظلت تلعق نفسها برقة وكأن لا علاقة لها بالأهوال الواقعة خلفها. تجشأت البقرة بازدراء وخارت في الهواء وهزت رأسها ثم أمسك العامل يدي المزارع في فك الرأس وجذبا أيديهم.

"ضعي يديك حول خصري وشدي إلى الوراء يا فتاة. هكذا صحيح. هكذا صحيح." قال ضاحكاً.

أطاعته الفتاة وفي اللحظة تلك سقطا إلى الوراء فسحقاها. وحين أفاقت وجدت المزارع يحمل في ذراعيه عجلاً هزيلاً وكانت البقرة تخور وسارعت بالقيام على رجليها المتيبستين ومفاصلها تطقطق وحوافرها تصلصل.

قال العامل "إن أبقارك داخلية الاستيلاد حتى أنها لا تقوى على النهوض لتلد."

وثب العجل بساقيه إلى الحياة. ترنح العجل قليلاً لكن استقبلته أمه ولعقت جسمه ونظفته تماماً لكنها لم تقرب الروث المتدلي من خلفه.

قال المزارع للفتاة "نعم، فالأبقار المسحورة ذات الرأسين أمرٌ غريبٌ حقاً."

"وكذلك النساء في تلك الحالة"-أضاف العامل مبتسماً للفتاة.

أجابت "بالطبع، بنبرة صوت الكبار في محاولة للمزاح كما يفعل سكان الريف لأول مرة."

ثم أصدرت صوت تذمر واختلست نظرة جانبية ثم إلى أعلى وكأنها تستطلع حالة الطقس داخل الحظيرة. دائماً ما ينظر أهل الريف ليروا حالة الطقس رغم اهتمامهم بمتابعة النشرة الجوية. حتى أنهم دائماً ما ينظرون إلى السقف عند التفكير أثناء المحادثات على مائدة الغذاء حتى أنها حاولت التصرف كالريفيين فابتسمت ابتسامة عريضة وكأنها اكتشفت سر الحياة ذلك الصباح بصحبتها للحيوانات.

حاول العامل أن يعلمها كيف تتبجح فقال برزانة "يا فتاتي، إن أردت ترك انطباع جيد بين الناس هنا، أشعلي عود كبريت وسطهم وضعيه خلفك وأطلقي ريح على الشعلة."

أراها العامل كيف تفعل ذلك ولاحظت الشعلة تنطفئ قليلاً ثم جعلها تشمه بعد ذلك ولكنها لم تشم شيئاً وقال "انتظري يا فتاتي."

انتظرت الفتاة في هدوء. بعد قليل رفع العامل رجله وأطلق ريحاً وسألها "هل تشمين شيئاً الآن؟"

تأملت الفتاة صامتة "لا أدرى ربما قليلاً."

قال "ما زال المزارعون يحتفظون بمعرفة الجسد ويبقونها حية. ولكن يجب ألا تستعرضي تلك المهارات العظيمة في الحظائر ومحطات الوقود. إنها مشهورة في حفلات الرقص بالريف عندما يشعر الشبان بالسكر ولكن على الفتيات ألا يفتنوا الشباب بتلك المهارات إلا وهم سكارى. تذكري ذلك."

وبقول العامل هذا جعل الفتاة تعده جادةً أن تمضغ حبة قهوة عندما تكبر ويصبح لها رفيق وأن تتزوج وأن تسكر من شدة الملل في كل فرصة سانحة.

وقال "ولذلك لن يشم زوجك رائحة الخمر في نفسك حتى وإن جلست مشلولة في المطبخ طوال اليوم من تأثير الشراب."

وعدته بجدية أن تمضغ حبة قهوة إن سكرت لتخفي رائحة الخمر عن زوجها.

وسألها "ألا يعلمك والداك مهارات البقاء تلك؟"

أجابت "لا"

وقال "ما عاد الأطفال يتلقون تربيةً في المدن والبلدات. ستزدادين خبرة أثناء إقامتك هنا في الصيف وبحلول الخريف ستصبحين امرأة حقاً."

رأت الفتاة أن الرجل يصدق القول.

وسألته "وماذا إذن لو لم أدخن؟"

أجابها "إذن فستتجولين وعود كبريت في فمك بالطبع. ولكن مضغ أعواد الكبريت يليق بالرجال أكثر من النساء. أعواد الأسنان أليق للنساء وتناسبهم أكثر. دائماً ما يمضغ هو عود كبريت ولكنها تمضغ عود أسنان- يناسب الاتفاق هذا زوجين سعيدين. بأية حال، الشبان هم من يفعلون تلك الحيل في حفلات الرقص وتجن الفتيات جنوناً وبخاصةٍ الفتيان الذين يمضغون أعواد الكبريت على الجانب الأيمن لفيهم حتى يظهروا ضروس العقل. ولكن لا تدعي زوجك يأكل الكبريت وإلا سيفقد حماسه."

فوعدت العامل جادةً ألا تترك زوجها يأكل الكبريت ووعدها هو بأن يعلمها طوال الصيف عادات الرجال بل الزوج وزوجته أيضاً.

قال "حياة الرجل وزوجته ليست متوافقة في كل الأوقات."

قالت "بالطبع لا." وأحنت رأسها فزوجة المزارع قد وبختها من قبل قائلة "أن تردى بلفظة "بالتأكيد" عند الإجابة عن شيء ما أو الاتفاق معه ليس بلغة أيسلندية صحيحة لأننا غير متأكدين من أي شيء في الحياة بالرغم من كوننا شعب ذكي ينحدر من ملوك النرويج. فالصحيح أن تقولي "بالطبع"."

قال العامل "كان الملوك دائماً يردون ب"بالطبع" فما بالك الملكات."

فكت الفتاة حبال الأبقار وساقتهم إلى المروج وهي تشاهد البقرة الغريبة وعجلها. تأملت الفتاة ما قالته زوجة المزارع وما قاله العامل أيضاً وتساءلت أيمكن أن تكون هي نفسها أميرة مسحورة تشاهد الروث يغطي ذيول الأبقار مهما كان ذلك أدنى من مستواها.

عندما لاحظت أن حلمات ثدي البقرة اختلف شكلها عن اليوم السابق تذكرت ما أراها العامل مرة خلف الحظيرة. بعد ذلك ظنت الفتاة أن أثداء الأبقار بالونات ذكر ولكن بها حلمات صغيرة عدة.

أخبر الرجل الفتاة في سرية وكتمان "للرجل حلمة واحدة في ثدييه."

في ظهر ثدي البقرة حلمات صغيرة مثل التي أراها العامل عنده ولكنها كبرت فجأة عند حلبها وشاهدت ذلك لفترة طويلة حتى تدفق منها ماء سماه العامل "حليب الرجل". ثم أصبحت مترهلةً كما كانت حلمات ثدي البقرة من قبل ولكنها الآن متيبسة كما كانت حلمة المزارع الوحيدة.

شاهدت الفتاة كم من اللبن تدفق ذلك المساء من حلمات البقرة الأمامية عندما عصرتهم زوجة المزارع وهي تقول أنها دائماً ما تحلب الأبقار بيديها بعد الولادة.

أحياناً في المساء كانت الفتاة تسمع ضوضاء خفيفة وصرير يأتي من الغرفة التي ينام فيها المزارع وزوجته. اندمج نومها المتقطع بما أكلوا في العشاء وما أسماه المزارع والعامل "مصل اللبن". عندما نهضوا من المائدة همس العامل في أذن الفتاة "ابقِ يقظة لكن تظاهري بالنوم في هدوء وستسمعين صريراً منخفضاً يأتي من غرفة نومهما."

حاولت لوقت طويل البقاء مستيقظة ولكن في نهاية الأمر ظنت أنها ستموت من شدة النعاس وهي تستمع إلى العامل يتنفس بهدوء في نومه. أثناء نومها المتقطع رأت العامل يفرد ذراعه العاري في الهواء والظلام وظل رافعاً له فترة طويلة وهو نائم ثم أزلقه تحت اللحاف وواصل التنفس بصوت عال.

شعرت الفتاة بالغثيان عندما رأت ذراعه يرتفع في الهواء دون سبب ثم تقوس ناحية النافذة المغطاة بستارة بيضاء.

ظنت الفتاة أن لا شك أن العامل صدق القول. لقد شعرت نفسها بغرابة بعد تناولها "مصل اللبن". ودون شك أصبح الجميع يتصرفون بغرابة وليس هي فقط التي لم تأكل من قبل ذلك الهلام الأبيض الذي غلى في قدر صغير داخل قدر أكبر به ماء مغلي. رقص القدر الصغير في الماء المغلي وهو يبقبق محدثاً أصواتاً غريبة حين كان يخبط القدر الكبير حتى تحول اللبن إلى هلام متماسك.

لم تفهم ما يجرى وقالت "أنا فتاة في التاسعة تسببت في مشاكل لذا أرسلوني إلى الريف."

الفصل السابع

أرسلت والدة الفتاة لها برسائل بصورة منتظمة كل أسبوعين كتبت فيها كم هو صحي للعقل والجسد البقاء في الريف حتى الخريف. وقالت أنها شعرت من رسائل الفتاة كم كبرت هي سريعاً وتعلمت الكثير من العادات الحميدة – "والآن لن تسيئي السلوك مرة أخرى."

قبل أن تختتم الأم رسالتها بدأت تتباطأ وتحيد في الكلام ربما لتظهر صدق مشاعرها وقدر الأمومة في كلماتها لذا استشهدت بكلمات الرب. كانت تفعل ذلك في الرسائل فقط وقالت أن الناس في الريف لا يسرقون المتاجر أبداً لأنهم يزرعون الأراضي ويثرون نفوسهم في الوقت ذاته كما يفعلون بالمزارع حتى تجد العجول البريئة تبناً تأكله في الشتاء "فحشيشة الملاك الخضراء ذات الرائحة العطرة موجودة في نفوسنا – يقول جميع المعلمين والكهنة أن ذلك هو الفكر النزيه والسليم لأمتنا."

ثم أخبرتها كيف يقول الجميع بأن مزيجاً من هواء البحر وهواء الريف هو الهواء الأصح في أيسلندا وكذلك تقول الكتب الطبية. "هناك فيتامينان من حضن الطبيعة مزجهما الرب ويمكن استخدامهما لتحسين الضعف في صحة الفتيات الصغيرات وفي سلوكهن. لا يوجد هنا ريف على

أطراف المدينة بل أرض بور. لابد وأن ذلك ما يجعل الناس يسرقون. كلٌ يسرق الآخر."

"ابنتى العزيزة، لقد قُبض عليك مرتين لسرقة شطائر من ثماني متاجر حتى دون الخروج منهم بغنيمتك. لقد قبضوا عليك متلبسة وأنت تلتهمينها خلف الرفوف وكأن أبوك وأنا لا نطعمك شيئاً... هل أكلتي أيضاً مرطبانات المرملاد الفارغة الموجودة تحت الرفوف أيضاً؟ أظن أنه من المؤسف سرقة الشطائر وأكلها سراً أمام الزبائن كلهم. عزيزتي، فاللصوص لا يفعلون كذلك. إنك ترسمين نموذجاً سيئاً. ما العمل إذن إذا اقتحم الناس المتاجر وهم جائعون وخطفوا الشطائر من الثلاجة وفتحوا المعلبات في اللحظة نفسها فالآن لسنا بحاجة إلى فتاحة العلب وأكلوا الطعام بنهم بين الرفوف ثم مضوا والبراءة تكسو ملامحهم ولم يشتروا شيئاً؟ عليك أن تعيشي في تناغم مع الطبيعة في الريف وذلك ما يجب على الجميع فعله واقتلعي ما بداخلك بمساعدة الرب من شر في نفسك."

"أتمنى لك هذا وأدعوك بفعله، والدتك المحبة" – هكذا ذيلت رسالتها.

أضاف أبوها سطوراً قليلةً عن كيف عرف من رسائلها أنها في طور النمو. كتب: "إنك تجيدين الكتابة." وقرأ بين السطور أنها بدأت تزداد وزناً. وقال "حتماً سيكون قد أصبح لديك ثديان ووركا امرأة ناضجة عندما تعودين إلى ديارك. كلي كثيراً" واختتم الرسالة بقول الكاهن عند تثبيته "كن أميناً إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة." دائماً

ما أشعر أنني حصلت على إكليلٍ فوق رأسي بعد ذلك - والدك العزيز.

مرت أيام وشعرت الفتاة نفسها بامتلاء جسمها. شعرت بنفسها تنتشر في المكان وروحها صغيرة داخل ذلك الجسم الكبير وكأن نفسها ستنزلق من الفتاة الصغيرة بسبب داخلها الخاوي ليصبح كلامها مشابهاً لحديث زوجة المزارع وللعامل في خيالها. وعندما فعلت ذلك كان الأمر مثل ماء يتدفق من روحها ويندمج مع المناظر الطبيعية حولها.

جعلت المياه الغريبة التي تملأها تدفق بسلاسة داخل الأبقار والأزهار والمستنقعات والجبال في الفضاء. كان الفيضان حزيناً شيئاً ما ولكنه طمأنها بأنها قادرة على السباحة وحدها والتحليق فيه كلما أرادت ضد الأمطار ولكن إلى السماء الزرقاء في المساء.

أحياناً في عطلة نهاية الأسبوع كانت الفتاة تتمدد بكسل على الرمال بجانب النهر تستمع إلى صوت تيار الماء الرمادي وكانت تشعر كيف تحولت أفكارها إلى فيضان عذب انطلق إلى السماء ولكن في اللحظة نفسها تدفق فيضان آخر متباين ومشابه للآخر في الوقت نفسه وجرى كمياه عكرة من بين رجليها إلى النهر.

ما أفسد سعادتها في لحظات كتلك فكرة أن هناك فتيات يمتلك آباؤهم متاجر بقالة. في الوقت نفسه، لم ترد الفتاة أن تصبح مثل أهل الريف وأن تمتلك الأشياء التي يمتلكونها كالمروج والخيول والسيارات الجيب وحيوانات المزارع. زد على ذلك، أرادت أن تهرب ولكنها لم تستطع حتى العودة

بخيالها إلى المنزل لأن ظلال الجبل خيمت على الطريق. تمكنت في المساء فقط أن تشعر بأنها تضرب بذراعيها وتطير في ضوء ساطع ولكنها لم تنجح في العودة إلى ديارها حيث سقطت وارتطمت بالجبل كذبابة سوداء. ثم حاولت النهوض لاهثةً ولكنها سرعان ما غُطت في النوم رغم ظنها بأنها لن تنام مجدداً بعد الحلم المخيف الذي أصابها بدوران وكذلك بعد سقوطها المفزع في بحيرة الجبل.

كانت تـفكر وهـي تنعس "في اليوم الذي سأذهب فيه على ظهر الحصان إلى سفح الجبل مع الأطفال الآخرين سأقوم بتسلقه والطير من على حافته."

ذهبت الفتاة في مرة إلى المستنقعات بجانب الخُث والتي حذروها من الاقتراب منها ولكنها ذهبت إلى حافة إحداها ونظرت إلى المياه السوداء. لاحظت بقٌ كثير يسبح على السطح أو إلى الأعماق غير المرئية. خاض البق في الماء برجليه في لعبة صعبة برشاقة وغرابة. بدوا بمقدورهم السير على الأرض وربما الطير. تلك المواهب المتعددة غرست فيهم بهجة لا حد لها. لم تكن اللعبة مجرد استمتاع بالحياة بل كان البق يقوم بوظيفة محددة: فكانوا يحملون فقاقيع بيضاء اللون من السطح على ظهورهم ويغطسون بها إلى العمق الأسود.

لعلهم في خدمة وحشٍ ما قابع في أعماق المستنقع ويجلبون له الهواء لكي يتنفسً حيث لا يستطيع الخروج من الظلام في ضوء النهار فالنور سيقتله.

هذا ما ظنته رغم أنها علمت جيداً أن ذلك غالباً وهمٌ وهراء.

إذا وقعت في المستنقع فسأموت فمن المستحيل أن أصل إلى الضفة العالية بقوتي تلك دون مساعدة لأن المستنقع ليس ممتلئاً حتى الضفة. لن أستطيع الوصول إلى الحافة بيدي ولن أستطيع رفع نفسي إليها. ستكون الشمس مشرقة كما هي اليوم وسأكون وحدي ولن يراني أحد. لن يسمعني أحد حتى إن نجحت في الطفو بالسباحة وإن صرخت ورأسي فوق الماء والإرهاق والبرد ينهكاني. كم سأبقى طافيةً على الماء؟ فوقي ستكون السماء صافية والهواء النقي والأزهار الهادئة والجميلة تنمو على ضفتي النهر. سأسمع تغريد العصافير المتواصل وأنا أكافح حتى لا أفقد قوتي وأنا أسبح أملاً في أن يأتي أحدٌ وينقذني. قد تمر الأبقار وتذهب ناحية الضفة وتنظر إلى الأسفل وتخور وتتغوط وتشرب من المياه كما سيفعل الكلاب و الحملان والخراف فعطاشى ومجهدون في هذا الطقس الجيد. ولكنهم لن يفعلوا شيئاً لمساعدتي عدا الخوار والثغاء والنباح في الهواء. كما سيواصل البق جلب الهواء للوحش بجدٍ حتى لا يختنق ويكف عن إعطائهم الأوامر وحينها لن يدرى البق ما عليه فعله وسيموت مرتبكاً وعاجزاً. ولكنهم لن يفعلوا شيئاً لي وأنا أختنق وأغرق. ثم سأشعر تدريجياً بطنين في أذني وسأرى كل شيء ضبابياً وسأشعر بالماء داخلي... ثم سأختفي تحته...

وقفت قرب حافة المستنقع واقتربت منه مطلقة العنان لخيالها وكلما فكرت في تلك النشوة الباردة اقتربت من الحافة أكثر مما بعث البهجة في نفسها. لا شيء يضاهي روعة التفكير في الموت في يوم بديع مثل يوم الأحد في الريف وهو يوم عطلة لا تجد شيئاً لفعله في ذلك اليوم وسط تغريد الطيور وعطر الأرض الرطبة التي تكسوها الأزهار والنباتات المتفتحة. أجمل شيءٍ هي أن تتخيل موتك في مستنقع خث والطبيعة تغطي سكون بعد الظهيرة وأنت في عنفوان الشباب والفكرة تبعد إلى ما لا نهاية عن مخيلتك وأنت صغير وفي مقتبل العمر.

الآن تقف الفتاة على الحافة وإن تقدمت خطوة فحتماً ستسقط. كانت أصابع قدميها فوق الحافة واستطاعت رؤية انعكاس صورتها بوضوح على سطح الماء الساكن.

همست لنفسها "اغطسي، اجرؤي على الموت" وشعرت بالماء يحيطها بارداً ووفيراً فقد انتهى كل شيء.

ذاب جسدها في الماء وتلاشى في المياه. أربكتها مواجهة الموت وكأنها في عالم آخر.

فكرت "أقل من خطوة واحدة تفصلني بين الحياة والموت. هيا. تقدمي. هيا تجرأي للمرة الأولى والأخيرة واقفزي في المستنقع."

طن الذباب وملأ النسيم الهواء بعطر الزهور وكانت العصافير تغرد دون شك وتزقزق عن زوال الحياة وروعتها رغم ذلك.

تساءلت "هل آخذ الخطوة تلك؟ ورفعت قدمها ومددتها ورأت نعل حذائها البالي منعكساً في المياه."

أذهلها ما عرفته وهي على حافة المستنقع الخُث عن الفارق البسيط بين الحياة والموت وفجأة تمددت منهكةً على الأرض. كان من السهل ألا يكون لها مستقبل باستثناء اللحظة تلك وما كان عليها إلا أن تتخذ نصف خطوة على الضفة لتلقى حتفها في المياه. غريب أن الموت يشبه الحياة. وكأن الموت يتعقب الحياة وكأنه مولود معها. أحياناً يرشد الموت حياة الإنسان كلها ويمكن للمرء الخروج من الحياة إلى الموت ولكن لا طريق للعودة منه إلا عند ميلاد الإنسان.

بإدراكها ذلك شعرت بحرارة الدموع في عينيها دون أن تبكي. حلق الكون إليها وضغط الهواء عليها وهي ممدة على الأرض وما كان ليفعل ذلك بإرادته. ظلت ممدة ومنهكة على العشب وشعرت بالأرض تضمها في خيالها بناء على رغبتها. شعرت حقاً أن على الإنسان أن يصنع كل شيء بنفسه. لن تجد صديقاً صدوقاً أكثر منك لذاتك. على الناس جميعاً أن يصنعوا في مخيلتهم أذرعاً اصطناعية بأي خامة متوفرة أمامهم في اللحظة تلك لكي يتخيلوا الأشخاص الذين يودون احتضانهم وكأنهم يحتضنونهم بالفعل.

تأرجحت من جهة لأخرى وشعرت بالأمان على ضفة المستنقع. رفعت رجلاً ونظرت إلى الانعكاس في المياه.

فكرت "ستكونين في مأمن إن استلقيت فعندها لن تسقطي."

في أعماق المستنقع يعيش الوحش الذي تخيلته وظل يرسل خدمه السود يسبحون برشاقة لجلب فقاقيع الهواء ليواصل التنفس وإصدار الأوامر لهم... حتى يتمكنوا من طاعته طاعة عمياء ويستمر الوحش في التنفس في المكان الذي لا يستطيع أحد رؤيته فيه.

الفصل الثامن

وبقرب حلول موسم صناعة التبن أتت ابنة المزارع إلى البيت دون إبلاغ في سيارة حمراء صغيرة. تغيرت الحياة في المنزل فجأة. صار الجميع أسعد. ليس الناس فحسب بل حيوانات المزرعة أيضاً وكذلك الطبيعة والضيوف. حتى الطقس بدا متحسناً فظل الجو جافاً لبضع أيام. جلبت الابنة السعادة معها ولكنها لم تفعل شيئاً

على الإطلاق ولم تشغل نفسها بشيء.

فقالت "إني متعبة لأقصى حد."

طلعت الشمس وفي يوم ما نهضت الفتاة وأحضرت دراجتها القديمة من السقيفة وركبتها إلى المزارع المجاورة لتحتفل برجوعها مع الجيران. لم تتحدث الفتاة ولكن أفعالها وانطباعاتها وكأنها قالت "لا شيء يضاهي أن يكون الإنسان في بيته وسط أهله أثناء عطلة الصيف."

بدت الفتاة تستمتع بالوضع. إن لم تقضي النهار في ركوب دراجتها إلى المزارع المجاورة أو على الرصيف حول البيت أو حتى المضي بعيداً بسيارتها الحمراء في الريف كانت تمتطي حصانها وتذهب بعيداً. كانت في المساء وفي عطلة نهاية الأسبوع تذهب مع أبيها في رحلات طويلة. كانا يمتلكان خيلين أصيلين. كانت تمضي بالحصان بجانب أبيها وكانا يبتسمان لبعضهما البعض من حين لآخر والهواء يُطير شعر الفتاة وعُرف حصانها. امتطى أبوها الحصان وكان يضع قبعة تويد عالية ذات ترابيع وأمالها إلى اليمين وبذلك تحول شكله إلى رجل في منتصف العمر

ولكن ينعم بصحة جيدة ومفعم بالحياة وكأنه رجل لائق يجمع بين ما تبقى من ملامح الشباب والنضج وخبرات الحياة الحسية والذهنية ولكنه آثر صحبة النساء ليتزوج إحداهن وكأنه يسير بالحصان برفقة آخر خطيباته وليس ابنته.

لم تعهد الفتاة تلك البهجة التي تشاركها الجميع. على العكس فقد دفع تأثير الفرح هذا ذهنها إلى التفكير بعيداً وأصبح مزاجها غريباً وحاولت أن تبقى بمفردها فهي لا تعرف غير البهجة الخاصة التي يشاركها المرء مع نفسه ولا أحد غيره والتي تطبع على الوجه ابتسامة مستقرة وغامضة لا يعرف أحد السبب وراءها. فهي ابتسامة داخلية تحجب نفسها كثيراً بالظهور على الشفاه الحزينة التي تتراجع قليلاً لتختبئ في الفم.

ملأ الضحك الصاخب أرجاء المنزل. كانت تُقص النكات والحكايات الكثيرة على مائدة الغذاء عن الناس بنبرة حقد. كانت الحكايات تافهة ولكن مهينة عن أناس من المزارع المجاورة. كانت الفتاة تأتي بالحكايات بعد رحلاتها المستمرة بالدراجة. كانت تنطلق إلى المزارع القريبة لتجلب حكايات مسلية عن الناس في المزارع المجاورة ولكنها كانت تسخر ممن يسردون لها الحكايات. كانت الابنة تلعب الهرمونيكا أيضاً. وما أن لاحظت أن المرح يأتي بتأثير عكسي على الفتاة حتى مررت يدها في شعرها وسخرت من الفتاة قائلةً "أيتها الصغيرة النكدة

لقد جئتي ببعض من تلك الرائحة الكريهة للبحر في نفسك."

ولكنها سحبت كلامها مباشرةً وأضافت بنبرة لطيفة "بالطبع لا أعني ذلك- أم أعنيه؟ فالإنسان يعني ما يقول بتلقائية."

لم تستطع الفتاة تحمل ذهنها يتأرجح مراراً وتكراراً حسب الحكايات التي تُروى عن ناس لا تعرفهم. ولم تفهم أي تلميحات ولا عندما وعدتها الفتاة بالجلوس أمامها وهي تركب الدراجة أو عندما تفعل شيئاً ما وكانت ستطلب منها فعله سراً ولكن سرعان ما تراجعت عن رأيها بمجرد أن رأت الفضول يزداد وكانت تعتذر قائلةً "لا، بعد تفكير لن أستطيع... آسفة."

ضحكت الابنة وغنت ورحب الجميع بها في بادئ الأمر ولكن بعد فترة قصيرة أصبح مرحها عبئاً دون رحمة بمن واصلوا الضحك معها وبعد أسبوع بدأ الجميع ينفضون عن مرحها أو تجاهلونه. توقف زوارٌ كثيرون عن محادثتها فبدأت الفتاة تضحك بصوت أعلى من ضحكاتهم جميعاً وإن مرت الفتاة بالابنة رسمت ابتسامة على وجهها فوراً وتأهبت للضحك على نكاتها.

قال المزارع للفتاة في مساءٍ على مائدة الغذاء "لقد أصبحت مرحة وأرى أنك ستصبحين زوجة مزارع فقد حررك العيش في الريف."

أطلقت الفتاة ضحكة صاخبة لتظهر اتفاقها مع المزارع لدرجة أربكته ولم يعرف ماذا يفعل تجاه هذا التصرف المبالغ

فيه. تمايل قليلاً على ضحكها ولكنه لم يفهمها. بدا مكتئباً قليلاً لوهلة وظل حذراً. نظر إليها متسائلاً وعلى وجهه انطباع ينم على أن لا شيء يمكن فهمه كل الفهم ولكن عليك أن تعتقد بأنك تفهمه. كانت نظرته المتعجبة كلما التقاها صدفة ولم يرهما أحد تثير إحساساً بالذنب داخل الفتاة وتوقفت عن الضحك حتى لا تثير الشكوك ولكي لا يتحدث أحد عنها فالكل يعلم لم هي هناك. فكرت دون وضوح: إن لم أضحك على النميمة عن الغرباء وإن لم أروي حكايات عن الآخرين فلن يروي أحد عني شيئاً ولن يتحدثوا بشأني حتى وإن كنت قد فعلت شيئاً في المدينة يستحق الكلام.

ظلت الفتاة تتوق إلى الاعتراف للآخرين بأنها تتظاهر وأن ضحكاتها زائفة وأنها لا تهتم بشيء مطلقاً عدا شيئاً واحداً ولكن لن تبوح به لأحد. كان التوق إلى البوح ملحاً لدرجة استلزمت صلابة بداخل الفتاة لقمع التوق هذا لم تشهدها من قبل ولم تعرف أنها تمتلكها. ثم قررت أن تعاني في صمت حتى الخريف ولكن بضحكات صاخبة محددة في غير محلها.

ذات مرة حين ضحكت تلقائياً دون أن تعرف السبب صفعتها زوجة المزارع على وجهها صفعة رجت داخلها لوقت طويل ولكنها لم تنطق رغم أن وجهها كان يلسعها وأشرفت على البكاء ولكنها عادت إلى عملها. بعد ذلك قللت من الضحك تدريجياً لكي لا يلاحظ أحد حتى

توقفت نهائياً. لاحظت الابنة التغير ذلك وقالت "والآن عادت السمكة النتنة في داخلك."

صاحت أمها "توقفي."

منذ تلك اللحظة نجحت الفتاة في أن تصبح معتدلة المرح بين الناس ولكنها كانت تنفث مزاجها السيء بمفردها. حين ينام الجميع كانت الفتاة تظل مستيقظة حتى تتأكد أنهم ناموا بالفعل. ثم كانت تنهض وتتسلل بهدوء لمشاهدة الجبل المظلم بفعل قدوم المساء والغروب. جعل غروب الشمس السماء وكأنها وهماً وأصبح الجبل أكثر صلابة حتى تحرر وأصبح أزرقاً داكناً في الليل. كف عن كونه جبلاً وأصبح لوناً. همس العامل لها في صباح ما: من الصحي للفتيات أن يتسللن في عري الليل للتبول على الأرض وبخاصةٍ بعد منتصف الليل. لن أقول لك السبب الآن فستعرفينه حين تكبرين.

لم تضحك الفتاة ونظر العامل إليها وقال "في الصغر يفعل الإنسان أشياءً ولا يعرف سبب ذلك ثم.."

سألت "مثل ماذا؟"

أجاب "مثل الكذب والتظاهر والادعاء برؤية وسماع أشياء وبعضهم ينتفض."

نظرت بعيداً وأحست أن العامل يرى ما بداخلها.

قال "حسناً، لا بأس. مازال أمامك الكثير لتكبري. لا تحدث الأشياء السيئة في الحياة إلا وأنت كبيرة وحكيمة."

ثم ابتسم وأظهر ما تبقى من أسنانه المتكسرة في ابتسامة عريضة ودار ممداً يده

ومشيراً بسبابته.

صاح "انظري إلى الطبيعة حولك! آه. كائن الحرية ذلك دائماً له ما يريد ولا يطلب إذناً لأي شيء منا نحن البشر المقهورين لكن المكتفين."

وانحنى فجأة ولصق لسانه بفم الفتاة. استشعرت الفتاة طعم تبغ على لسانه اللين والناعم وشعرت بوخزٍ قرب أسفل بطنها. ضحك العامل.

قال "لا تطلب الطبيعة إذناً أبداً لتستقر في أي مكان. فقط انظري إليها."

بسماع كلماته تذكرت الفتاة أن الكلاب أحياناً تعض في الهواء دون سبب واضح والأبقار تخور دون أن يعلم أحد السبب والقطط تموء في هزال مراراً وتكراراً والأزهار تنمو في أماكن غير معتادة. ما المرح الذي تشعر به الطبيعة وكل شيء يسهل عليها؟ بدأت تدرك أن معظم الأشياء تنمو وهي تتحدى رغبة الإنسان عدا العشب في المروج الذي زرعه المزارع والأشجار التي زرعتها زوجته في صفوف وأزهار الزينة والخضروات. نبتت بعض من أجمل الأزهار وسط فتات حديد أو زيت زلق أو وسط القمامة وتخيلت نصف زهرة على صخرة بارزة من الأرض تنام في هواء البحر. وجدت الصخرة المجردة والسماء مكاناً تقتحم فيه ذهن الفتاة المشوش وسحقت النباتات والحيوانات وضحكات الناس الذين يصنعون التبن وهو يجف بفعل أزيز الماكينات.

قال العامل مبتسماً "الحياة صعبة ولكن اعلمي أنك ستكبرين بفعل السنون. ستفعلين ما تشائين بهم ودون محاولة."

ظل العامل يلصق لسانه في فم الفتاة كلما كانوا منفردين وقال "أفعل ذلك لأنك مازلت طفلة ولكن عندما تكبرين ذكرى لساني في فمك سيجعلك تتوقين متألمة إلى كرهك لذاتك." ضحك ونظر إليها ساخراً وستظل ترافقك ذكرى هذا اللسان لا شيء آخر حتى وإن كنت متزوجة أو لديك أطفال وكنت غير مخلصة ولجأت إلى إنجاب الأطفال من زوجك قبل أن تكبرين وتضيع فرصتك أملاً في إنقاذ زيجتك وليس للحب ولا أي شيء آخر عدا فعل يائس لإنقاذ نفسك.

ثم انحنى إليها وقال "عضي لسانى عندما تشعرين به ولكن مرة واحدة فقط في طرفه."

كذلك فعلت وهي مرتبكة قليلاً وفجأة شرع في البكاء وأمرها بمغادرة المكان. بعد ذلك توقف عن تلك اللعبة وتظاهر بأنه لم يلاحظها لفترة.

الفصل التاسع

فجأة تغيرت الابنة تماماً ولم تنطق بشيء لفترة وتحولت إلي فتاة صعبة المراس بل حاقدة. ثم بدأت تسهب في الحديث ونظر والداها لبعضهما البعض واختلسا النظر إليها مصدومين.

توقفت الآن الابنة عن التسكع بسيارتها وركوب دراجتها وصارت في منتهى النشاط في العمل وكأنها شخص آخر. أرادت أن تغير كل شيء فعملت بجدٍ في المطبخ. لم يستطع أحد أن يظل في مكان واحد بسبب فضولها. كانت إما قد أنجزت ما يجب إنجازه أو على وشك البدء فيه وأحياناً قد تقول في عندٍ أن الأمر غير ضروري. وفي المساء كانت تجلس في غرفة المعيشة تجبر أو تحيك بجدٍ وإذا دخل الغرفة شخص كانت تحدثه وكأنها تحدث البشر جميعاً وليس فرداً.

وعلى مائدة الغذاء لم تتحدث عن شيء سوى الحاسب المنزلي وعلف الأبقار بمساعدة برنامج تغذية للتبن كتبته صديقة وزميلة مدرسية لها في مزرعة على سفح الجبل. زعمت أن العالم أخيراً سيتجه إلى مستقبل جديد كلياً ومجهول لكنه حتماً استثنائي.

قالت: تلك هي المرة الأولى في التاريخ التي يستحق فيها المستقبل بأن يلقب ب"المستقبل".

استمع أبوها إليها باهتمام ولكن من الواضح ليس لمعنى ما تفوهت به من حديث ولا لقيمته كتنبؤ. فكان أحياناً ينفعل قائلاً "هوني عليك. هيا، هوني عليك!"

قالت ببرود وهدوء "بما أن الحاسب الآلي لم يكن معروفاً إلا في العقود الأخيرة فمستقبلنا على الأرض كان صورةً عشوائيةً من الماضي ونماذج غير مطابقة له. ولكن مستقبل البشر لن يحدده برنامج. البشر سيتجهون لأول مرة في التاريخ لما بعد النظام الشمسي وبعد القوانين الأرضية وعلم الوراثة الطبيعية إلى علم وراثة متطور وحقيقي وجميل ومن ثم إلى تجربة كونية."

هزت أمها كتفيها في لامبالاة وقالت في عزاء "حاولي أن تأكلي شيئاً ما. لطالما كان ذلك الأفضل لنا مهما كان رأي العلم فيه."

قالت "أظن أن باستخدام الحاسب الآلي في العلف ستتمكنون من حلب الأبقار ثلاث مرات يومياً. لم تُحلب الأبقار مرتين فقط في الصباح والمساء؟"

رد أبوها دون حماسة "كما جرت العادة."

ردت الابنة "فلتذهب التقاليد. وبدأت تنتقد ماكينات الحلب التي توضع في أثداء الأبقار. أرادت أن تضع الماكينات باستمرار على الأبقار جميعاً في الحظيرة لكي يُختزن الحليب في حال تسربه من الثدي."

رد والدها في غير حماسة "ستدمرين أبقاري حينئذٍ."

ثم انتقدت التبن لأن الطقس كان جافاً كل يوم. كلما تولت مسؤوليته صارت موضع أعين ثلاثة رجال من الزواج.

ظل العامل محملقاً في الابنة وضحك على ازدرائها وتظاهرها بالضعيف لما تبذله من جهد في العمل.

وسأل "متى سنستفيد بنساء يتحكم بهم الحاسب الآلي؟"

جاوبته مقتضبة "لن يحدث."

"لم لا؟"

ردت في الحال "في عالم الاتصالات ستتاح لي الفرصة للاستفادة من نفسي لأول مرة يا صديقي."

دارت الابنة في جميع أرجاء المكان مرتدية بنطلوناً أزرقاً وأصبحت جميع المهام سهلة الإنجاز بالنسبة لها: ماكينات صناعة التبن وإبر الحياكة والقدور والناس في المزرعة فكانت هي من يدير المنزل. في مرة أرت الابنة الفتاة يداها قائلةً "إنني أستطيع استعمال كلتا يداي بنفس الدرجة."

كانت يداها تشبه مجرافين صغيرين ودقيقين.

سألتها الفتاة "كيف؟"

"أستخدم كلتا يداي، اليمنى واليسرى أيضاً."

بدت الابنة تفضل قضاء اليوم على الجرار وماكينة الحصد وناشرة التبن والسيارة الجيب. كما بدأت تتورم من زيادة النشاط حتى بدا أن التورم ليس بسبب عضلات بطنها ولكن بدأت حالتها تظهر على جسدها. بعد ذلك برزت بطنها ككتلة في البنطلون الذي زررت نصفه عند الحزام والألسنة مفتوحة كالعادة حتى أن بطنها المائلة للون البني وسروالها التحتي الأبيض الصغير كانا مصرورين أسفل بطنها.

وبدأت تتنبأ بالمستقبل وتضع الأوراق في المساء أثناء العشاء وهي ترفع شعرها الثقيل والمغسول دائماً من على

جبهتها بطيئاً وتلقيه وراء عنقها على كتفها الأيمن في الوقت التي حثت فيه الجميع على أخذ دورات تدريبية في الحاسب الآلي وبدت حالمة وهي تمسك بورقة في الهواء وتضعها على ورقة أخرى مؤيدة لفكرة حاجة المرأة لإنجاب الأطفال خارج رباط الزواج وعليهم ألا يروا الرجال إلا كمنيٍ متجمد للإخصاب.

عندما انتابها ذلك المزاج كانت أمها تشعر بالارتباك ولكن أبوها تحمل المزاح البارد والثرثرة بأن لم يظهر تعبيراً على وجهه وترك عضلات وجهه تدلى.

قالت مستهزئة من الرجال "إن استطاع المني أن يبقى متجمداً سيصبح طفل الأم بصحة جيدة."

أعطى ذلك الابنة متسعاً لتذكر مراراً والد الجنين في رحمها ولكنها طلبت منهم ألا يسألوا عن هويته.

قالت في حزم "إنه غير موجود ولا أريد سماع اسمه. إن طفلي لي وحدي."

حاولت أمها أن تهدئها وقالت "بالطبع ولكن حاولي ألا تجهدي نفسك كثيراً مع الآلات. فالجميع يجهدون أنفسهم أحياناً."

سأل المزارع "أتظنين أنها ستجهد نفسها وهي فتاة ريفية معشوقة في صحة جيدة؟"

لم تستمع الابنة إليهما وقالت بنبرة متغطرسة ونظرة كامدة أن والد طفلها ميت على الأقل بالنسبة لها.

وأضافت "بالنسبة لي فهو أكثر من ميت وأقل من اللا شيء. لم يكن موجوداً بأي حال ولكن كشيء صغير ربما

كمرح منتصف الشتاء بعض الشيء ثم كشيء ميت ومدفون."

ظنوا أن الأب يعيش في مزرعة على سفح الجبل كانت ترمي بظلها في الاتجاه الذي كانت تنظر إليه الفتاة باستمرار لأنها عاشت بعيداً في الجانب الآخر من الجبل. جمع الجبل ستراً من السحاب حول قمته في المساء وحولتهم الشمس إلى اللون الأحمر. بالشكل هذا بدا الجبل وأنه يتزوج المساء أو المساء يتزوجه وقت الغروب حينما تشاركا في فراش الزوجية المصنوع من السحاب.

في الوقت الذي كانت فيه الابنة وحدها مع الفتاة كانت تطلب الابنة منها أن تأتي وتضع يدها على بطنها. أطاعتها الفتاة وشعرت ببطن صلبة تحت كفها وسرى بداخلها إحساس غريب وكأنها لا تلمس بطن امرأة ولكن كرة كبيرة أو ربما كرة أرضية.

وقالت "بالطبع كنت تظنين أن بطن النساء الحوامل يكون طرياً. ألم تسمح لك أمك بأن تضعي يدك على بطنها قبل أن تلد أختك إلى الحياة؟"

أجابت الفتاة "لا فمن غير اللائق لمس بطون الحوامل."

ضحكت الابنة ضحكاً صاخباً.

"ما اللائق إذن؟"

أحنت الفتاة رأسها حرجاً وشعرت بغثيان. في مخيلتها شقت البطن بيداها وتلمست طريقها في الظلام حتى وجدت الطفل القابع هناك وخنقته. في اللحظة نفسها

ظهرت أم الفتاة في مخيلتها وكأنها منحنية على شيء وكان ظهرها في اتجاه الفتاة. مسكت الفتاة كتف أمها وأدارتها. ثم رأت كفيها ملتصقين بالبطن الكبيرة. دحرجت الفتاة أمها حتى تعثرت على المنحدر مثل المرطبان ذو الممسكين واصطدمت بصخرة وتهشمت. رُوعت الفتاة وبدأت تبكي وجرت بعيداً.

صاحت الابنة بصوت مرتفع "إنك غريبة الأطوار. إنك مريضة بالفعل."

حلمت الفتاة في ليلة أن الابنة قد اختفت. تملك الفتاة الرعب واستيقظت ونهضت من الفراش وتسللت إلى الخارج. بحثت عن الابنة في حظيرة الأبقار وفي نهاية المطاف وجدتها مستلقية في مربط واقفة على أربع ولها رأسان. كانت الرأس الموجودة في ظهرها تصرخ بشدة ولما رأت الفتاة بدأت تخور وخرجت فقاعات رغوة من حروف فمها. كانت ستتصرف مثلما فعل المزارع فكانت ستمسك الفم وتتشبث بالفك وتضغط بقدمها على موخرة الابنة وتسحب الرأس الاضافية في الوقت الذي نهضت فيه الابنة على حين غرة وضحكت عالياً محتقرة الفتاة وقالت "لن تصبحي امرأة حقيقية إن سمحت لنفسك بالانخداع هكذا في حلم."

استيقظت الفتاة في الواقع لكن خيوط الأحلام ظلت تحوم حول ذهنها ولفتها وكانت تشد الفتاة في اتجاهها وتغطيها بين ثنايا رمادية ناعمة لثوب ما. وهناك التقت الفتاة الابنة مرة أخرى وطلبت الابنة منها أن تضع كفها

على بطنها المنتفخ مرة أخرى. طاوعتها الفتاة وكانت البطن تتنفس سريعاً ثم تعمدت فعل ما فعلته دون وعي في خيالها من قبل. غرست كلتا يديها في البطن دون رحمة وكأن البطن بيضة كبيرة ذات قشرة رقيقة ونظرت لترى ما إذا كان صفار البيض وزلاله ينزان منها. ضحكت الابنة وانتاب الفتاة الرعب. حاولت انتزاع يديها ولكنهما التصقا ببطن الابنة.

صرخت الابنة في وجه الفتاة ووجهها مشوه من الضحك والعواء في الوقت نفسه "لن تتخلصي مني أبداً بعد هذا."

استيقظت الفتاة فجأة ورأت هدوء الليل المؤلم حولها. سمعت صراخاً في الهدوء السائد إما في نومها أو يقظتها. كان هناك ضوءاً يميل للزرقة في غرفة نومها وعلمت أن الليلة ليلة صيف. جاء الصراخ من مكان ما وكأنه انزلق من غرفة سرية داخل سكون اليقظة. ثمً نهضت بطيئاً وتتبعت الضوضاء وكأنها تتسلل خلف خيط في صدرها.

لما نهضت من السرير وجدت العامل ممداً ومستيقظاً دون حركة وبدا يستمع إلى الصراخ الذي لم يكن مسموعاً بوضوح. كانت الأشياء وضوء الليل داخل الغرفة غير واقعيين وكأنهما في مشهد من حلم. ظل ضوء الليل نوعاً من الحلم لأيام طويلة لا تنتهي أبداً وبذلك لا تضيع في ظلمة الليل ولكنها تُضيء مثل مصباح لاصفة في الليل.

كان العامل مدركاً للفتاة. دار إلى جانب في اتجاه الفتاة بعينين محايدتين خاليتين من التعبير اللتين ظلا مفتوحتين

ومستيقظتين في النوم. كان أحدهم يضحك ويصرخ في الوقت نفسه على مسافة بعيدة. أدركت الفتاة تدريجياً أن الصوت صوت العصافير وخرير النهر في الليل ولكن أفاق ذهنها وصحت تماما. كان ذلك صوت ضحك ابنة المزارع وصراخها فكان هناك صوت سيارة. كادت الفتاة تجري إلى النافذة لترى ماذا يحدث في الوقت الذي دفع العامل بذراع من تحت اللحاف وأعاق طريقها وجذب رجلها حتى أنّها كادت تقع على سريره وذراعيها ممدودين في اتجاه النافذة.

صارت زرقة الليل أكثر ظلمةً وهو يجذبها إلى السرير معه. وضعها فوق جسده وشعرت بسلام يسري في جسدها لم تعهده من قبل. أرادت أن تموت وتدفن في أحلامه.

"لا" – هكذا قال وهو نائم ولم ينطق بشيء.

شمت الفتاة رائحة العامل. استطاعت أن تشم رائحة جسده ونومه وملابسه التحتية. كانت الرائحة لرجل ناضج عاملٍ. ازدادت رائحته وهو ينظر إليها ينهج وانتاب الفتاة مجدداً حنيناً إلى الموت والدفن في أحلامه.

قال "إنه حب كئيب فحسب. ثم تركها."

بدلاً من التوجه إلى النافذة عادت الفتاة إلى سريرها مرتبكةً تنظر إلى الرجل بطرف عينها وهي تمشي عبر الغرفة. مد العامل ذراعه في اتجاه غير محدد وراقبته الفتاة ورأت قبضته فظهر كفه كان مواجهاً لأسفل. راقبته أيضاً من مكانها في سريرها والطريقة التي ثبت بها قبضته في

الهواء مرات عدة دون أن ينظر اتجاهها. ثم وضع يده على جبهته وغطاها وعينيه تحت كفه.

ظنت الفتاة أنها لن تنام أبداً ولكنها غطت في النوم سريعاً دون أن تدري.

في الصباح التالي لم تكن الابنة موجودة . كانت قد غادرت. لم ينطق أحد بكلمة وكأنها لم تكنٍ هناك أو لم يكن لها وجود. لم يذكرها أحد. كان البيت فارغاً عما قبل. عادت جميع الأشياء داخل البيت وخارجه تدريجياً إلى أماكنها ولم يغير أحد مكانها إلا عند الضرورة. استمر الروتين القديم كما هو. تولى العامل حلب الأبقار والحظيرة.كلٌ فعل مهامه. وعندما ساقت الفتاة الماشية سألت العامل "ماذا كان هذا؟"

نظر العامل إليها وسألها "ماذا تقصدين؟"

ثم نظر إليها بجلف وأجاب "أنا. كان هذا أنا."

الفصل العاشر

عادت الابنة في أسبوع أو ما يزيد نحيفةً وصامتةً ومتخلصةً من بطنها لكن دون طفل بين ذراعيها ثم تملكها الوهن بعد فترة قصيرة من عودتها. ذهبت أمها بالسيارة الجيب إلى مكان ما لتقلها وحين نزلا من السيارة أمام المنزل صارت الأم مفعمة بالضجيج. وكأن الهواء والطاقة فيما مضى قد انتقلا من الابنة إلى الأم. كانت الابنة تهز كتفيها في لامبالاة وكأن العالم لا يهمها وفي طريقها إلى المنزل رأت الابنة ناشرة التبن فجرت إليها مباشرة وتجاهلت أمها الأمر.

كان التبن منشوراً طوال الليل في طقس جافٍ في نهار مبكر. ذهبت الأم إلى المطبخ لتعد فخذ عجل. كان المزارعً قد ذَبح عجلاً في الصباح المبكر بمساعدة العامل. لم تسق الفتاة العجل هذا مع باقي الأبقار. كان الفخذ للعجل الذي رأت رأسه يخرج من مؤخرة البقرة. كان عمره شهر واحد وكانت البقرة قد توقفت عن التنشق حوله وإلصاق لسانها في ذيل العجل لتر إن كان عجلها أو عجل آخر. ربما نست البقرة أمر العجل ولكن عندما اختفى من القطيع ذلك الصباح هاجت البقرة ورفضت إطاعة الفتاة واندفعت بقوة خارج القطيع وجرت تخور في الحقل. حاولت الفتاة مراراً أن تسوق البقرة إلى المرعى ولكن البقرة رفضت وخارت وكانت عيناها جاحظتان وأطلقت خواراً طويلاً.

رغم ثورة البقرة في الحقل لم يُجب العجل عليها فقد تمدد على الأرض مذبوحاً ومسلوخاً ورأسه بجانب ذيله على جريدة ما وعنقه الممزق معروض في الشمس. قُطِع الجسم إلى قطع. دارت البقرة في الحقل كحيوان أخرق حتى أن ثدييها خاضا في الوحل. خارت البقرة ولوثت جانبيها بالماء والطين في المرج وكانت أشبه بكلب يهر. كان خوارها قصيرٍ ومبكي. ظلت ثائرة كهذا طوال اليوم وكانت ترعى قليلاً لتستجمع قواها وتستريح وتزايد ارتباكها مع حلول المساء لأن ثديها الممتلئ باللبن أعاق حركة رجليها. بدا الثدي وكأنه سينفجر ويتدفق اللبن من الحلمات. ظلت البقرة تبحث عن عجلها حتى أنها هاجمت السور وضربته بأعلى رأسها وظهرها. وعندما لم يفسح لها السور طريقاً وقفت البقرة بثقل على رجليها الخلفيتين وضربت بحوافرها الأمامية على دعامة السور. شاهدتها الفتاة مذهولة أن ذلك الحيوان الأخرق سهل المراس بإمكانه كتمان هذا القدر من الأسى داخله وتلوى ألماً وصارت رغوة على فمه.

أتى الأطفال من جميع المزارع ذلك الصباح لرؤية الذبح. كان هؤلاء أطفال الريف الذين يستمتعون برؤية الحيوانات تُذبح. وقف العجل وحده في الحقل لفترة قصيرة في نور الشمس وكان متألقاً فبدا وكأنه يلمع من عالم جديد في يوم لا سحاب فيه. تدافع الأطفال ليضعوا أيديهم حول رقبة العجل دافعين بعضهم البعض عن الطريق وتشاجروا ليقتربوا من الحيوان الذي ظل منتظراً في هدوء وشارد الذهن بعض الشيء وسط العشب والحوذان والهندباء

البرية. وضعت الفتاة ذراعيها حول رقبة العجل أيضاً. شعر وجهها بنفس عميق ولكن وقف العجل ثابتاً في مكانه كالقبر ولم يحرك حتى ذيله.

همست الفتاة في أذن العجل "من المفترض أن تموت الآن ولن تكون حياً بعد عشر دقائق. تخيل ذلك؟ أتدري كم تبقى لك من وقت؟"

أطلق العجل خواراً منخفضاً.

قبَل الأطفال العجل على جبهته وربتوا عليه ونظروا مباشرة إلى عينيه الغامقتين اللامعتين واللتين بالكاد ومضتا في ضوء الشمس. كان العجل وحده بعيداً عن أمه والآخرين كلهم وعن عناق الأطفال أيضاً. ظل هادئاً في ضوء الشمس وجهاً لوجهٍ مع الموت.

ضحك الأطفال لما سمعوا ما قالته الفتاة للعجل واصطفوا ضاحكين ليهمس الجميع في أذن العجل "من المفترض أن تموت ولن تكون حياً. هل تعلم هذا؟"

سَن العامل السكاكين المصقولة والحادة ووضعهم على كيس من قماش غليظ لونه بني فاتح كلون العجل. لم تلمع أطراف السكاكين في ضوء الشمس فكانت سكاكين قديمة وملطخة ولكنها كانت مرعبة في نظر الفتاة. أمر المزارع الأطفال بإخلاء المكان والوقوف في زاوية البيت بعيداً.

وقال للفتاة: "لقد ودعتي العجل بلطف سيدخله الجنة ولكن لا تقفي هنا. يمكنك اختلاس النظر من ركن بعيد. نحن لا نريدك هنا. هيا، هوني عليك. افعلي كما سمعت وستأكلين منه في الغذاء."

صاح ولد من مزرعة مجاورة "إنه جميل جداً."

أجاب المزارع وهو يدفعهم بعيداً "حسناً، بل سيصبح أجمل حين يُطبخ على الغذاء وإن ذهبتم جميعاً من هنا فستأتي ابنتي قريباً وسنرحب بها بوليمة رائعة من لحم العجل. حسناً؟ وستشاركوننا الغذاء. اتفقنا؟"

أجاب الأطفال في صوت واحد "نعم."

اختفى الأطفال بعيداً مبتسمين ولكنهم تشاجروا على اختلاس فرصة للنظر ورؤية الدم يسيل تحت السكين.

ذهبت الفتاة مباشرة لتجمع الأبقار. ما أن اختفت عن الأنظار حتى عادت مسرعةً واختبأت وسط الأطفال. أرادت هي أيضاً أن ترى العجل يذبح ويموت. عندما عادت وجدت العجل ممدداً في الحقل يلوي أرجله دون جدوى. ثبته العامل وعقره المزارع بالسكين. ارتعشت رجلا الفتاة وقالت في سرها للعجل "لن ينقذك أحد الآن. أمامك دقيقة واحدة على الموت، نصف دقيقة بل ثانية واحدة، الآن تموت. كما طلبت منه أن يلقي نظرة أخيرة على العالم." ثم عقر المزارع عنقه وتدفقت منه الدماء كنافورة حمراء تساقطت على الحوذان والأزهار التي انحنت تحت سيل الدماء وتظاهرت بأن شيئاً لم يكن مغطاة بلون أحمر وأصبح لونها أصفر لامع وأحمر في هالة الصباح.

وضعت الفتاة يدها على فمها وشعرت بماء يجري في دوامة حول عينيها الجافتين. كانت أكواب زهرة الحوذان ممتلئة بالدم. سطعت الشمس للحظة بضوء غريب وبدت الجبال مُغيبة على مد البصر حين زاغت عينا العجل وأحنى

رأسه. لم تستطع أزهار الحوذان استيعاب الدم فيها وتدلت على الأرض لتفرغ أكوابها ولكنها رفعت رأسها إلى الوراء إلى حد ما.

لاحظت الابنة بعد وصولها وجلوسها في ناشرة التبن مباشرةً البقرة وهي تهجم على السور وتخور. أوقفت المحرك وصاحت "ماذا أحل بتلك البقرة العجوز؟"

لم يجب أحد ولكن الفتاة أُمرت بأن تسوق البقرة إلى الحقل في الحال ولكن البقرة عادت على الفور وهي تخور عالياً. ثم قادت الابنة ناشرة التبن إلى السور وتراجعت البقرة. صرخت الابنة في البقرة وفتحت بوابة السور وأدارت المحرك ولاحقت البقرة لتبعدها عن المكان لكن البقرة عادت فاستسلمت للوضع وقادت العربة إلى المزرعة وقالت "هل جنُت الأبقار هنا هي الأخرى؟"

أمرت الابنة الفتاة بسوق البقرة إلى الحقل مرة أخرى وقلدت الفتاة صوت خوار العجل لكن البقرة لم تنخدع ولم تنظر إلى الفتاة. شعرت الفتاة بذلك وقالت في سرها "ربما استشعرت البقرة أن لا يمكن لأحد أن يحل محل آخر مهما أراد لأن المُصاب يندب شيئاً بعينه لا يمكن لأحد أنً يعوضه حتى وإن نُسي أو تلاشى من الذاكرة بمرور الوقت." وضعت الفتاة جبهتها بين قرني البقرة وذهنها يعصف على هذا النحو. أحنت البقرة رأسها وفمها إلى الأرض وخارت في العشب المندى.

وقفت الفتاة والبقرة كذلك هناك لفترة في ضوء الشمس في مستنقع رطب وعلى مد البصر ارتفعت

الأرض على نفسها في سراب وكأنها تتوق إلي البحث عن جوهرها السماوي ولكنها عجزت عن المضي قدماً أو فقط في صورة أخرى غير تلك ذات السراب الرمادي وأمواج الهواء تتلاطم في علو ثابت فوق الأفق قليلاً أو فيه. مباشرة بعد أن عادت الفتاة من سوق البقرة خارجاً للمرة الأخيرة نادت زوجة المزارع الجميع لتناول الغذاء. عاد الأطفال من المزارع الأخرى ممشطين شعرهم جيداً لكي يبدوا متألقين ومهندمين أثناء انضمامهم إلى الوليمة. وقفوا متجمعين وشعرهم ممشط إلى الوراء ومتأنقين في ملبسهم يشاهدون في صمت كيف حامت أسراب الذباب حول بقايا العجل والدم الذي تحول لونه إلى اللون الأسود وأصبح جافاً في ضوء الشمس وكيف التصقت أزهار الحوذان بالسائل المتخثر.

عندما دخلوا بوقار إلى المنزل ملأ البيت رائحة فخذ عجل مشوي. بدأ لعابهم يسيل وشعروا بالجوع.

ترجلت الابنة من ناشرة التبن وقالت مازحة وحالها أكثر ابتهاجاً مما كانت عليه حين وصلت في الصباح: "ما هذه الوليمة؟ أنتم أيها الآباء تعرفون كيف تحتفلون بابنة أجهضت جنينها لتنتقم ممن خانها."

أسكتتها أمها.

قالت أمها وهي حزينة "لقد أعددنا لك فخذ عجل فمن المفترض أن لحم العجل غني بالدم لعلك تتعافين أسرع. "

قالت "سآكل وآكل." وانحنت واقتربت بوجهها من الأطفال وأرتهم مخالبها المطلية باللون الأحمر وقالت "سأمزق لحم العجل واتخم جسدي به وعندما أنهض من المائدة سيكون لي بطن كبير كما كنت."

وهرت.

نظر الأطفال إليها في إعجاب وتظاهروا بالخوف من أظافرها وتعبيرات وجهها الكشرة غير المقنعة. ظهر الامتنان في أعينهم وهم يمضغون اللحم ويلقون عليها نظرات فبفضلها دُعوا إلى الوجبة وأكلوا لحم العجل الشهي برفقتها.

استطاعوا سماع خوار البقرة من وقت لآخر وهم يتناولون الغذاء وكانت البقرة قد عادت إلى السور تضربه. كانت النوافذ مفتوحة في ذلك الطقس الجيد وانبعثت رائحة شرائح اللحم إلى الخارج. وضعت الابنة الشوكة والسكين وقالت بوقاحة: لعل البقرة تعرفت على الرائحة. ألا تظنون بأنها تستطيع التعرف على رائحة عجلها المشوي.

بدأ الأطفال يضحكون.

وسألتهم "هل تستمتعون بأكل عجلها؟"

أجابوا وهم يلهثون "نعم"

"وكيف تظنونها ستخور يا أطفال لو علمت أننا هنا نتخم أنفسنا به؟ ستخور هكذا..."

ضحك الأطفال مبتهجين بسبب تقليدها.

لم يقل الكبار شيئاً. طلبت زوجة المزارع فقط من الأطفال ألا يلوثوا وجوههم وألا يلطخوا ثيابهم بالدهن ولا يمسحوا أيديهم في مفرش المائدة. نهضت الزوجة وأخذت بعض المناشف من لفة مناشف المطبخ وأعطتهم للأطفال. لم تعد مباشرةَ إلى المائدة وأمضت وقتاً طويلاً للغاية تبحث في الخزانات. نظرت الابنة إليها وضحكت مبرزة أسنانها كتهديد. ثم توقفت وظنت الفتاة أن عينا الابنة أصبحتا غريبتين. كانت الابنة دائمة الابتسام وكانت تهز كتفيها كلما وضعت لقمة في فمها.

قالت "لذيذ هذا العجل ابن البقرة دائمة الخوار."

أجاب الأطفال "عظيم. وهم يحركون الشوك في اللحم حيث إنهم شعروا بالامتلاء."

سألتهم زوجة المزارع "هل اكتفيتم بالأكل؟ إذن فاذهبوا إلى الخارج ولا تعبثوا بالأكل فإنها خطيئة."

سارع الأطفال بالنهوض من المائدة والخروج. وتسارعوا إلى السور ليروا البقرة. قال أحدهم "لقد التهمنا عجلك للتو."

خارت البقرة.

ثم نظروا إليها بحزن ولكن بدا أنها لم تفهم شيئاً.

هرول الأطفال إلى المنزل ليخبروا الابنة أنهم كلموا البقرة وأخبروها أنهم أكلوا عجلها لكنها لم تهتم قط.

قالت زوجة المزارع "أفٍ." ونصحت ابنتها بأن تستريح بعد الأكل. قائلة "ما زلت متعبة."

أجابت الابنة ونفذ صبرها "حقاً يا أمي فأنا أنتمي لجيل حديث ولا حاجة لي أن أستريح."

تمشت الفتاة بمفردها إلى السور لترى البقرة التي كانت واقفة بجواره رافعةً رأسها وتخور في المزرعة. كانت الابنة تقود ماكينة صنع التبن ومرت بالفتاة التي سألت "هل تعلم البقرة أننا نهضم عجلها في بطوننا؟"

جاء الأطفال مسرعين وكانوا قد سمعوا السؤال. بدأوا يلهثون بفيهم الواسعة في وجه البقرة التي خارت.

أجابت الابنة "لا، إن الأبقار لا يدركون شيئاً. إنه مجرد تمثيل."

نظروا إلى الحيوان لفترة وقالت "آه، إني أكره ذلك الخوار. سوقوها إلى الخارج!"

ساقوا جميعهم البقرة بعيداً ثم جلسوا على ضفة وبدأوا يقطفون الأزهار ليضعوها على القبر الذي سيدفنون فيه ذيل العجل وسيغنون له تراتيل جميلة ليُمجدوا لكونهم أطفالاً مسيحيون طيبون.

سيقت الأبقار ذلك المساء إلى الحظيرة مارين بالمكان الذي ذُبح فيه العجل. قضم بعضهم العشب المدمم. كذلك فعلت أم العجل التي ظلت تخور طوال اليوم. وأزهار الحوذان المغطاة بدم متخثر اختفت داخلها. شاهدت الفتاة ذلك وبالكاد وطأت تلك البقعة. ثم فعلت وداست عليها مسرعةً بقدميها وقفزت مرتين وشعرت بارتعادة انزعاج تحولت إلى دوخة. شعرت بهواء يخرج منها في صورة

تجشؤ من فمها. ثم بدأت تتقيأ وتنشت الأبقار قيئها ولكنهم ابتعدوا حين تدفق القيء.

قال المزارع "لقد أكلتي أكثر من قدرتك من فرط البهجة."

في الصباح التالي كانت البقرة قد نسيت تماماً أمر العجل ولم تشعر الفتاة بأي غرابة حول قطعة الأرض التي أرعبتها قبيل وقت الحلب مساء اليوم السابق. وكأن الموت قد نهض من رقعة الدم السوداء وتصفت عبر نعلي حذائها وتدفق من قدميها إلى قلبها مباشرةً. لكن الفتاة نفضت عنها ذلك الشعور في هذا الجو البديع ولن يعود إلى جسدها أبداً الآن. أشد ما ميز البقعة هو الذباب الكثيف الذي حام حولها أكثر من المناطق الأخرى.

الفصل الحادي عشر

قطع الصيف الطقس الجميع في تلك الأيام بترقبٍ لطيف وجعلت الشمس الوقت يمر. لم تعر الفتاة اهتماماً بالطقس أثناء اليوم ولم تشعر بالوقت إلا حين بدأ المطر يسقط وسمعت القطرات تسقط ثقيلة على أوراق اللفت ذو اللون الأخضر الفاتح ورأت الماء يتحول إلى لآلئ ينزلق بصعوبة كالزئبق على الأوراق. استيقظ الوقت مع النور وصوت الأمطار الخادعة على الأوراق التي نمت وتشابكت لتصبح سقفاً طويلاً ومنخفضاً فوق الخضروات المزروعة في قطعة الأرض تلك. ولكن حلٍ سحر جامد مباشرةً وجعلت الشمس الوقت يتبخر ثانيةً. على صعيد آخر، صحت الأبدية في المساء في شكل فقدان بعد أن نام الجميع. لأن الأبدية والفقدان يرافقان بعضهما البعض. إنه الندم الذي يثير الإحساس بالوقت وليس السعادة.

قال العامل في مساءٍ ما وكان يجلس علىٍ طاولة في الغرفة يكتب مذكراته: نعم، إن كنا سعداء دوماً فلن يكون هناك ما يسمى بالوقت والساعات والذكريات والمذكرات. ثم وضع ذراعيه حول كتفيها.

كان المزارع يمزح أحياناً مع العامل ويقول أنه يظن أن العامل يفضل صحبة الرسائل على صحبة الناس. قال المزارع ذلك في الحظيرة واعترف العامل بذلك أيضاً دون مراوغة لكنه شعر بإحساس بسيط بالذنب.

وقال العامل "لم أكن يوماً مهتماً بالناس أو بالحيوانات. جميعهم سواء فأنت تعلم أنني أُغرمت وأنني أقوم بعملي

جيداً لأنك بطريقة ما أو بأخرى عليك أن تعيش لمشاعرك وتعمل لجسدك."

"هذا صحيح إن كنت قد صدقت القول فيما قلته أولاً ولم تكذب كما تفعل عادةً"- هكذا قال المزارع وأضاف "ولكن الحب غير كافٍ إن عزمت العيش في الريف."

أجاب العامل "حقاً؟ ظننت أن ذلك كافٍ في كل مكان."

لم يجب المزارع ورحل.

استمعت الفتاة إلى محادثتهما وشعرت أنها تعلمت تدريجياً أن تحب العمل وأن تعامل الحيوانات بطريقة أكثر لطفاً من وجودها بين الناس. عرفت حتى الوقت هذا الخيول كلها وعلمت أن الداكن الذي جلبته في اليوم الأول لها فرساً كما يمكنك تحديد جنس الحصان بالنظر أسفله حتى أنها استطاعت أن تميز بين الخيول عن مسافة بعيدة كما ارتبطت أسماؤهم بألوانهم والأمر كذلك بالنسبة للأبقار. تعلمت أن تتسحب إلى الخيول الأكثر خجلاً وتلجمهم فتبدأ بالدمدمة لهم بصوت منخفض وتفتنهم بكلمات وأصوات غير مفهومة قبل أن تصل إليهم وهم ينظرون بتوجس إليها بطرف أعينهم في خجل ورقة. كانت تقترب إليهم في هدوء وتتخيل في ذهنها أنها غير مرئية إلى أن تلمس فخذ الحصان برقة وكأن الحنو نفسه قد وضع كفه عليه. ثم تواصل المشي دون صوت بجانب الخيول وهي تثرثر بلطف وتدللهم وتدمدم لغة الخيول التي اخترعتها وكانوا ينصتون إليها وينصبون آذانهم في النسيم

والقشعريرة تسري في أجسامهم وما أن يحدث ذلك حتى تجدهم الفتاة وقد فتحوا فيهم سامحين لها بضبط اللجام في أفواههم.

كان ذلك أغرب ما وجدته الفتاة في مسك الحيوانات ولكنها نفسها لم تفهم الدمدمة الهادئة التي خرجت دون سابق إنذار منها وتسللت من مكان مجهول لتصل عقلها بالخيول. رغم أنها لم تفهم قدراتها الساحرة للخيول فإن الحيوانات البرية الأخرى غير الرقيقة رأت السحر هذا تعبير عن الحب وكانوا يحكون رؤوسهم في صدرها ويخبطون أعلى رؤوسهم على الجبهة بقوة في المكان الذي كان قلبها يتسارع فيه في سعادة. في تلك اللحظة كانت تتبخر معهم وسط العشب المبتل في المستنقع. وبعد وهلة، وبعد أن تكون قد استجمعت قواها كانت تمرر يدها على شفاه الخيل الحساسة وكانت تشعر بنفسهم الدافئ في يديها وفيها كلها كتيار رطب ذو رائحة نفاثة لعشب ممضوغ. ثم كانت تهمس باللغة العجيبة في آذان الخيول فكانت تشد آذانها إلى الأمام والخلف برعشة قصيرة وحادة.

وإن لم يرها أحد كانت الفتاة تركب الخيول وظهرها عارٍ بعدما كانت تحك خلف آذانهم لفترة طويلة.

كانوا أحياناً يرسلون الفتاة لتجلب خيل الابنة عندما كانت تعاني من نوبات سوء المزاج وكانت تختفي لتتخلص من هذا المزاج السيء. كانت الابنة تجري على ظهر الفرس إلى البوابة وتنادي على الفتاة لتفتحها وتمسكها حتى تعدي الابنة. وكانت تتملق الحصان المغمغم ليخرج ليعدو في

المستنقع الكثيف الذي نثر وترشش وهي تضرب الحيوان بلا رحمة بالسوط.

ثم كان أبوها ينظر إليها وهو يعمل ليرى كيف كانت تضرب بقوةٍ الحصان الدائخ الذي فقد تحكمه في العدو وشعر في الوقت نفسه بالذل. وإن كانت الابنة في مزاج يسمح للحصان بالتهادي في المستنقع كان أبوها يراقبها من ورائها لوقت طويل.

وعندما عادت في المساء كان لونها بني غامق وكانت ملطخة بالطين حتى رأسها. كانت تمشي في المدخل كامرأة بلون الأرض تضحك في شر وتأخذ حماماً تظل فيه لمدة طويلة وكأنها تنقع نفسها لتتخلص من الملح الخبيث في لحمها وروحها وكانت تأخر الغذاء وهم ينتظرونها. في نهاية المطاف، كانت تذهب إلي المائدة وكأن الأمر طبيعي جداً وشعرها مبتلٌ. كانت تنفض شعرها إلى الخلف والأمام وقطرات الماء تخبط في وجوه الجالسين كالدبابيس. في مثل تلك الأوقات كانت شهيتها مفتوحة على غير العادة.

قال المزارع ساخراً للفتاة "يا لها من مسكينة. أجهضت الفتاة جنينها والآن هي تشعر بالخواء داخلها فتريد شيئاً جيداً لتملأ نفسها به."

ثم ائتمن الفتاة على سر وقال لها أن العمال من المفترض أن يحبوا بنات المزارعين ولكن حالتهما استثناءاً.

وقال "وهي ليست مغرمة بي أيضاً ولا حتى سراً."

نظرت الفتاة إليه من وراء الأبقار.

وقال "لا يوجد حب في الريف كما كان فالأبقار تُحقن والحظائر موجودة لحفظ التبن. ليس هناك شيء إلا من أجل الإنتاج. وهكذا الأمر بالنسبة للناس أيضاً. لم يعد هناك حب."

بالرغم من ذلك، رأت الفتاة زوجة المزارع تحاول إظهار العاطفة لابنتها فكانت تلمسها وتربت عليها ولكن الفتاة كانت تدفع يد أمها بقوة بعيداً وتحرجها قائلة "لا تلمسيني." وأضافت قائلة لتوضح موقفها إن كانت أمها لم تفهم الإشارة "أمي إني لا أحتاج إلا شفقة فأنا في المرحلة الجامعية الآن. لا تعامليني وكأنني فتاة عذراء لا تعرف شيئاً غير الأخلاق المسيحية الطيبة والصناعات اليدوية على يد زوجة الكاهن أو ربما عزف الأرغن والغناء بصوت صارخ تلك الأغنيات الأيسلندية الشنيعة المأخوذة عن الموسيقى الدانمركية الكئيبة في الأصل."

لم تفهم الفتاة ما قصدته الابنة من الحديث هذا ولا من سلوكها.

قال المزارع بعد أن انتهت الابنة من خطابها الدفاعي أن السبب وراء قولها هذا هو عدم قراءتها للروايات القروية الموجودة على رفوف الكتب في منزلها.

قال للفتاة "فكري في الأمر. هناك خزانتان كبيرتان مملوءتان بقصص تتحدث عن السعادة في الريف ولكن ابنتهما الوحيدة لم تقرأ أياً من تلك الكتب. إنها تقرأ فقط المناهج الدراسية ثم تأخذ إجازة وتقرأ قصص الحب والمغامرات عن شخصيات مستهترة لا تعبأ بمسؤوليات

وتنتهك القانون. ومن ثم يظل الريف وحيداً ومهجوراً وماضيه مسرود في كتب يغلفها الغبار على الرفوف ولا يرغب أحد في معرفته."

عندما نظرت الفتاة في الخزانة لاحقاً لم تشعر برغبة في معرفة أي شيء عن الحياة في الريف أو السعادة فيه في أيام مضت. ولم تهتم ببذل جهد لقراءة كتب مبقعة ظهرها بني وصفحاتها ذات رائحة غريبة تكاد تكون ملتصقة بعضها البعض فلم يفتحها أو يتصفحها أحد من قبل. كانت الكتب بالية ورطبة ولكنها لم تتلف كليةً.

بدأت الابنة تمضي وقتاً طويلاً في الحمام لتهدئ أعصابها وكانت تحبس نفسها لساعات فيه وإذا أراد أحد دخول الحمام وقعقع بمقبض الباب كانت الأم تسارع وتقول "إنها في الحمام."

كانت تخرج في نهاية الأمر ورائحتها كزجاجة عطر مفتوحة وكانت تعلق مشغل أغان حول رقبتها وكانت السماعات في أذنيها. ظلت لوقتٍ طويل لا تذهب إلى مكان إلا ومشغل الأغاني معها حتى أثناء الأكل. لم يرض والدها عن ذلك الوضع وهي جالسة كذلك منعزلة عن الحياة لا تستمع إلى عناوين الأخبار في المذياع أو تشاهدها في التلفاز.

و قال لها "عليك أن تتابعي الأخبار."

أجابت بتنهيدة وتعبير غير مبال ينم عن ملل. "ما دامت الحياة باقية ستبقى المعارك بلا نهاية في بيروت أو مثلها من الأماكن. وستغطى الأنباء نشرات عن الآلات الرائعة

المخترعة من أجل إنقاذ العالم وأنها دون شك ستحسن فهمنا عن الإنسان ولكن لحسن الحظ دائما ما تفشل كما هو معتاد. تعمل جميع الجامعات الآن على اختراع جهاز تخاطر ويُجزم بأنه سيحدث ثورة في تطور الحاسب الآلي والالكترونيات أو على الأقل جعلهم من الماضي. إليكم هذا أيها المزارعون فأكثر العلماء ذكاءً يقولون أن ثورة التخاطر أوشكت على حل جميع المشكلات وما عليكم إلا تحملها لفترة قصيرة. "

قالت الأم "التخاطر موجود منذ سالف العصور فهو منذ بدء الخليقة."

أجابت الابنة بنبرة حمقاء "كل شيء موجود منذ بدء الخليقة يا أمي ولكن على المرء اختراعه. المشكلة هي جعل الأشياء مرئية وملموسة. فرسائل التخاطر تلك لا تُرسل بيننا نحن البشر على أساسٍ علمي من قبل أو عبر استخدام أكثر الأجهزة تطوراً ربما عبر الأقمار الصناعية ومن ثم ستصبح الأجهزة الالكترونية تلك كالقمامة وستكون بالية في لحظة حتى قبل أن نعرف استخدامها صحيحاً. وأخيراً وجد العلماء الشيء الوحيد الذي احتل أحلام الناس لفترة طويلة. وستبلى جميع الاختراعات في الوقت ذاته."

وسألها العامل فجأة "لكن جهازك ليس بقديم، أليس كذلك؟"

أجابت سريعاً دون انزعاج "حسناً، من يدري. لا، فعندي في حقيقة الأمر أزرار عدة احتياطية في حال تلف أحد

الأزرار. ولكن إن نجح العلم في تبسيط الوضع وإلغاء الأزرار جميعها دون واحد فلن تستطيع الضغط عليه ولن تنجح في استفزازي."

قالت كذلك وهي تحملق في المزارع ثم بدأت تضحك.

رد المزارع "أظن أن أحدهم في كلية العلوم بالجامعة قد ضغط على أزرارك جميعاً مرة واحدة وأظنك مُستفزة الآن وأن مرحلة الضغط على أزرارك قد مضت وانتهت في شتاء واحد فلم تكوني كذلك السنة الماضية."

لم ترد الفتاة بينما كسر أبوها عينيه وتنحنح. نظرت الزوجة إلى ابنتها والمزارع تتساءل ما إذا كانت روايات الريف المغبرة التي لم يلمسها أحد في الخزانة تعيد الكرة مرة أخرى أمامها ولكنٍ بشكل جديد. بالطبع الشكوك تلك والجدل ليس دليلاً على وجود شيء ما بين العامل والابنة؟ بدت الابنة وكأنها تقرأ أفكار أمها وقالت "أمي، أستطيع أن أؤكد لك بجهازي التخاطري أن حدسك مخطئٌ تماماً الآن. ولكن العامة ستظل دائماً في المكان مهما ذبلوا وتحولوا إلى جماد. ستندلع المعارك في بيروت أو أي مكان آخر دون أن يتوقعها أحد وبخاصة في الأماكن الأكثر آمناً."

ارتدت الابنة في المساء سترتها الفرو رغم أن الطقس كان دافئاً ولم يحل الخريف بعد وذهبت إلى الليل ومعها مشغل الأغاني. جلست في سِتر الضفة أمام المزرعة وشاهدت الغروب لوقت طويل. غالباً كانت تستمع إلى موسيقى أو أغنيات تلائم روعة المساء الجميل المتورد اللون.لكنها لم تغن أبداً. كانت تستمع فقط ولم تغرها

الأغنيات على الغناء. قالت الأم مرة للفتاة دون داعٍ "إنها لا تستمع إلى الموسيقى الشعبية."

نظرت الفتاة إليها بدهشة.

أضافت الزوجة "إنها لا تستمع إلى الموسيقى في الأساس. إنها تستمع إلى شريط لتتعلم ثالث اللغات انتشاراً على مستوى العالم."

ردت الفتاة "حقاً؟ لماذا؟"

أجابت المرأة "كما سمعتي من قبل وكما قالت هي نفسها فإن المستقبل يكمن في أمريكا الجنوبية. بحق أيسلندا لا أرى ذلك ولكن أحدث الأفكار تجزم بأن لا شك في ذلك الأمر."

الفصل الثاني عشر

فجأة بدأت الفتاة تلوح باستمرار بتلسكوب تفحص به الريف حولها. اعتادت أمها أن تخلعه في خلسة من الخطاف وتقف به على السلم وتوجهه في جميع الاتجاهات وهي تحرك جسمها معه دون أن تتحرك من مكانها. تحكم المزارع على صعيد آخر في التلسكوب كلياً في المساء ونظر فيه بحذر من نافذة المطبخ حيث رفع المشبك أسفل التلسكوب.

جلست الفتاة مرة بمفردها في المدخل وكانت وحدها بالمنزل لسبب ما ولم يكن أحد بالمزرعة باستثناء الصمت. أخذت التلسكوب دون إذن ووجهته في جميع الاتجاهات كما فعل الآخرون. لم تنظر خلال تلسكوب من قبل وذهلت لما رأت المزارع المجاورة والتي كانت بعيدة عن المكان أمام أعينها في ضباب رمادي. ملأها فجأة إحساس بالخزي لما رأت أناساً يقفون على السلالم في مزارعهم موجهين التلسكوب إلى الآخرين في الاتجاهات كلها.

ما الذي يبحث عنه هؤلاء؟ أمن الممكن أن يكونوا يتجسسون على بعضهم البعض؟ كذلك تساءلت وبدأ قلبها ينبض سريعاً.

أصبح الخفي جلياً باختلاسها النظر في التلسكوب وشق طريقه كصفعة مهينة في صدرها واندفعإلى قلبها وأزعجه بضربات سريعة. لم تجد إجابة عما يبحث عنه الناس في المزرعة. ظنت الآن أنهم مجرد يتفقدون ما إن كان الآخرون ينظرون إليهم. شعرت أنها تحت مراقبة دائمة وأن جميع التلسكوبات في الريف موجهة صوبها وتستطيع رؤية

نفسها وما بداخلها. كانت تلك المقاطعة الريفية الهادئة الواقعة على نهاية خط المصرف على السهل المنبسط تعج يعيون مراقبة. بعد ذلك لم تشعر الفتاة بأنها وحدها قط. شعرت بأن أحدهم كان يراقب جميع تحركاتها عن بعد وآثرت البقاء داخل المنزل لأن شيئاً ما ليس ببعيد عن إله شرير كان دائم المراقبة لها.

باكتشافها ذلك أصبحت الفتاة نفسها كالتلسكوب وظلت تراقب سراً الابنة التي كانت يقظة للغاية ولاحظت سلوك الفتاة على الفور فكانت دون شك تحترس دائماً من الناس على طريقة سكان الريف المحليين.

سألت الابنة الفتاة وعنفتها "لم تحملقين في بعينيك تلك التي تشبه عيني العجل؟"

تجنبت الفتاة الاختلاط وصارت خجولة ولكن مسرورة بأن عينيها تشبه أعين العجول. لم يكن للأمر دلالة محددة باستثناء ربما حقيقة أنها قد تلاقي موتها بالطريقة نفسها التي لاقاها العجل وأن الابنة قد تعقر رقبتها. تخيلت الفتاة أحياناً في نشوة قبيل نومها كيف سُيعقر عنقها وتدفق الدم منه في الاتجاهات جميعها فيملأ أكواب زهرة الحوذان في المرج والشمس مشرقة وأشعتها تنشرت الدم من الفتاة لتتحول إلى شمس غروب حمراء خطيرة في السماء في منتصف النهار حتى عادت ونشرت أشعتها كالأمطار على الريف واستعادت لونها الطبيعي. شعرت الفتاة بنشوة رائعة قبيل أن تغط في النوم مع تلك الأفكار مثل المساء في نهاية يوم مشمس.

وإذا لعبت اللعبة نفسها في أي مكان خلال النهار كان الغسق يملأ ذهنها مراراً وحول الأشياء العادية إلى أشياء غريبة وكأن روح انبعثت فيهم أو جعلتهم سامين والدم يتدفق من رقبتها. سقطت قطرة في كل كوب من أزهار الحوذان في المرج وسقط السكين المدمم على الأرض من يد خفية ورأسها وقعت على جريدة ما وشعرها الناعم يكشف عن وجهها وشكل هالة شقراء اللون حوله. أصبح كل شيء متعباً ومختبئاً داخل شرنقة السكون التي تاقت إلى النوم والليل. قررت الفتاة أن تقول شيئاً لحظة موتها وأن تتمنى أمنية، ربما ليست الحياة الأبدية بل أن تدخل قوقعة محار غير قابلة للكسر. بدا اليوم وكأنه تمنى أمنية مماثلة في اللحظة التي خفت فيها النور وأنه في المساء سيدخل في قوقعة تظلم باستمرار. تمنت الفتاة أن يخرج يوم جديد وغريب من قوقعة الليل تتلاشى فيه روح القوقعة من عيني القوقعة المغمضتين إلى بداية يوم جديد في قوقعة زرقاء. ثم تخيلت الحلزون الأحمر في الليل وبمجرد أن فكرت فيه قررت أن تطلق روحها من عينيها المفتوحتين في الوقت الذي استسلمت فيه للشبح مقتنعةً أن إذا خرجت روحها من أسفل ظهرها ستظل إلى الأبد في الجحيم تُعاقب.

"على روحي ألا تهجرني وتخرج من جسدي إلى الرب عبر مؤخرتي"- هكذا فكرت. ومن ثم لن يقبلها الرب. ستكون رائحتها شنيعة بسبب الأفعال البذيئة التي اقترفتها فسيرميها الرب غاضباً وسيقول "لم تأتي تلك الروح القذرة إلي؟ فالرب لا يفعل أي تصرفات بذيئة أو سيئة."

ثم يقول الرب بجفاء "أيتها المرأة السيئة، لقد عشت طويلاً في قذارة وإن روحك مقززة حتى وإن حاولت تطهيرها بالعيش في المزرعة."

لم تتأمل الفتاة طبيعة الروح من قبل حتى روى لها العامل عجائبها واقتنعت الفتاة أن الروح تتسلل خارج الجسم كالبخار من فتحة ما لحظة الموت. فكرت في ذعر وشرعت في البكاء: ولكن ما العمل إذا أرادت الروح أن تخرج عبر الشق. ثم جاءتها فكرة. ظلت تمشي لأيام عدة بسدادة في الشق لزجاجة دواء سعال فارغة كانت قد سرقتها. ظلت على هذا النحو تحت تأثير نوم الموت حتى ظنت أن من المحتمل أن تكون الأعين مرآة الروح ولكنها أيضاً تجويفات يمكن للروح الخروج منها كالبصر. "نسافر نحن إلى كواكب أخرى في سرعة الضوء ونولد من جديد في هيئة أطفال رُضَع. لهذا يستغرق النساء وقتاً طويلاً لإنجاب الأطفال وولادتهم. لأن سر الحياة يجعلهم ينتظرون موت أحدهم في كوكب بعيد لكي تدخل الروح تلك في نهاية المطاف المولود الجديد فالجنين نورٌ ينمو داخل المرأة وفي اللحظة التي يخرج فيها نور الحياة من جسد أحدهم في المجرة يتوهج النور في جسدٍ آخر سريعاً ربما يبعد سنوات ضوئية لا حصر لها. هذا ما سمعت العامل يحدث به مذكراته ولذلك السبب المرأة هي حاملة النور.

أحياناً ما ساعدها العامل في اكتساب نوعاً ما من الإيمان. أخبرها أن الشيطان يقبض الروح إن خرجت صدفةً عبر الأعضاء التناسلية أو أسفل الظهر.

وقال "أرواح بعض الناس تكون مشتتة في أجسامهم أثناء الحياة."

"كيف؟"

أجابها "فحين يموتون تحاول الأرواح إيجاد طريق ما لتخرج منه ويكون عبر الأماكن غير النظيفة التي نحتقرها كثيراً. لذلك الجحيم عبارة عن بركة من البول. من يقع في حفرة تودي إليها في الليل لا يعود أبداً ويغرق مهما حاول الصراخ طلباً للنجدة والسباحة في المستنقع. من ينتهي به الأمر في الجحيم يغرق في حوض من البول الذي خرج من أرواح الرجال الفاسدين."

وقالت "من الكريه أيضاً أن تخرج الروح عبر الأنف أو الأذن."

وافقها العامل تماماً في الرأي ولكن لم يعرف إلى أين سينتهي الأمر بالروح إن خرجت من الأماكن تلك لحظة الموت.

وقال "الأرواح التي تطير خارج أنوف الناس وهم يعطسون تنتهي غالباً برحلات لا نهاية لها على ما أظن."

"وماذا عن الأذن إذن؟"

"يذهبون إلى الكلاب."

كانت الفتاة تعذب عقلها بالتفكير في تلك الألغاز مع العامل الذي قال "إذا أرهقنا عقولنا تماماً بالتفكير في الأبدية سينتهي بنا الأمر مبشرين في أفريقيا."

سألها عما إذا كانا سيبدأان التدريب على التبشير وبدأ بنفسه فكشف إيماناً جديداً لدى الفتاة. قال "نعم،

فلنحاول." وسألها في مرة دون سبب "استمعي يا فتاتي بصفتك امرأة متعلمة وحكيمة فهل تعلمين إلى أين تذهب الروح إن خرجت من الأنف في عطسة لحظة الوفاة؟"

أجابت الفتاة لحظتها "في منديل أو في الهواء أو ظهر الكف."

قال العامل "أقصد إن تخلصت من الشبح بالعطس. الرجال لا يلوحون بمنديل وهم يموتون."

قالت "انتظر. لا تهجر الروح الجسد مرة واحدة ولكنها تتحرك داخله تحاول أن تجد مخرجاً لتذهب سريهاً من الجسد منذ لحظة ولادتنا. فالإنسان يموت طوال الوقت الذي يحياه. فالموت ليس أسوأ ما في الوت ولكن أسوأ ما فيه هو اختفاء الوعي في الوقت نفسه واختفاء إدراكنا بأنفسنا والآخرين أيضاً. ذلك أصعب ما يمكننا تقبله. فنحن لا نريد أن نتوقف عن المعرفة."

كانت تجلس على الجرارة غير مهندمة كالعادة حين ألقت ذلك الخطاب القصير. عندما انتهت منه هزت كتفيها وجسدها كالشمس ولكنها انزعجت من التحدث فجأة بكلام لم تتأمله ودون شك نقلته عن شخص آخر. أمسكت ببطنها وكانت مسطحة وبدا الحزن في عينيها فجأة. كانت قد بدأت النظر إلى الناس بطريقة مختلفة مؤخراً عما اعتادت عليه من قبل. ابتعدت عنهم وكانت ترتدي دائماً ملابس قديمة غير مهندمة.

"يا لها من مسكينة. أصبحت العذراء الصغيرة الجنين الذي أجهضته مما يجعل جسدها أكثر جمالاً ويتعذر الوصول

إليه عما قبل وهي الآن مرغوب فيها أكثر على هذا النحو." هذا ما قاله العامل قبل أن يقول للابنة "لأنها تحولت إلى شمس الصباح وشمس المساء في الوقت ذاته. "

مشي العامل مستغرقاً في التفكير بعيداً عن الابنة التي واصلت قيادة الجرارة هنا وهناك دون سبب واضح. كانت تقود إلى الوراء بشكل عام ناحية شيء ما تحركها إلى الأمام وإلى الخلف وواصلت تحريك الأشياء من مكانٍ لآخر وكذلك فعلت بالعربات وماكينات الحصد.

اختلست الفتاة نظرة على مذكرات العامل في اليوم التالي ووجدته كاتباً: استمعت إليها صباحاً ومساءً وأعلم الآن أن بمرور كل يوم جزء من إنسان آخر يموت بداخلي رغم أنني بالكاد أشعر بالأمر. لذا أقتبس الكلام الذي نطقت به السيدة التي أجهضت جنينها مؤخراً. ولكن علاوة على ذلك هناك المزيد ممن لا أعلم أنهم يموتون هناك. أحياناً أستيقظ دون شك على حقيقة أن أغلب أوجهي قد ماتت.

رقد العامل ممدداً على المرج فاتحاً ذراعيه ورجليه عندما قرأت الفتاة سراً مذكراته وعندما وضعتها مكانها وخرجت متجهةً إليه نهض مرحاً ومد يده لها وترجل معها في المرج.

كان اليوم الأحد وقد ذهب المزارع وزوجته لأداء مصلحة ما وظن العامل والفتاة أن الابنة قد رافقتهما ولكنها اندفعت إلى ركن المنزل وأحضرت التلسكوب من الداخل ووقفت على الدرج لوقت طويل. رأت الفتاة التلسكوب موجهاً نحو الجبل والمزرعة على سفحه رغم أن

الابنة صوبته في اتجاهات مختلفة مراعاة للشكل العام ولتخفي الحقيقة عندما لاحظت الأمر. ثم جلست على درج وبدأت تربت على كلبٍ وترفع التلسكوب من وقت لآخر وتثبته في اتجاه الجبل أو تحركه في جميع الاتجاهات.

تمدد العامل والفتاة على الأرض أسفل الضفة وكانوا يراقبون الابنة. قال العامل "جاءت فتاة ألمانية إلى المقاطعة تعمل لدى شركة تصدير خيول أيسلندية وتبين الآن أن لا يوجد أحد بأيسلندا يستطيع ركوب الخيل صحيحاً فهي تعلم الشباب والفتيات فن ركوب الخيل في الإسطبلات هناك."

أشار العامل إلى الأراضي المنخفضة بعيداً حيث يقع الجبل بالقرب من النهر. هناك إسطبلات أنشئت حديثاً غير مطلية وتألقت الشمس على الأسطح الحديدية المموجة.

وأضاف "يذهب المزارع وزوجته الآن كل أحد ليتعلموا الركوب الصحيح للخيل على يد الفتاة الألمانية. وهناك شخص آخر يتعلم ركوب الخيل مع الفتاة الألمانية لذا تحمل التعيسة التلسكوب في الهواء طوال الوقت. حتى المتعلمون يظنون أن هناك شيء غامض مقلق بشأن فن ركوب الخيل."

سألت الفتاة "لم لا تذهب هي أيضاً؟"

أجابها "بعض النساء يظنون أنهن لا يحتجن إلى تعلم هذا الفن لكن الرجال يحتاجون. فهن يرون أن الجِلسة الصحيحة على حصان مروض في دمائهن!"

خلع العامل عود قش ودغدغ الفتاة خلف أذنها.

يراقبني الآن ثلاثون تلسكوباً في المزارع حولنا ويستطيعون رؤيتي وأنا أتحسس فتاة غير بالغة في سفح تل في ضوء الشمس. ولن تلبث أن ترن الهواتف ولعلني سأجد نفسي غداً مستدعى بأمر حضور تهمة الاغتصاب العمد بعد التحرش الجنسي بفتاة يوم الأحد.

تدحرج على ظهره وأطبق أسنانه بحماس مرتين في ضوء الشمس والريح.

سأل "أستستسلمين للاغتصاب عندما تكبري؟"

أجابت "نعم، إن تمكن أحدهم من ذلك."

قال "فإنك ستخدمين ما في خيال الناس."

سألت "كيف؟"

رسم الجدية على تعابير وجهه وبدأ يداعب أذنها وأنفها على التوالي.

وقال "يمكن لناس أن يحصلوا على جزء ضئيل من الراحة بأنفسهم والتي يتمنون الحصول عليها من الآخرين طوال حياتهم. ذلك ما تفعله الحاجة إلى القوة."

"هل أنت قوي؟"

"لا، ليس بالقدر الكافي. ليس هناك أحد قوي بالقدر الكافي."

الفصل الثالث عشر

استيقظت الفتاة على صوت أحدهم يدخل غرفتها ويمر بسريرها ثم تبخر أو تلاشى. وضعت الفتاة بحذر وبطئ شديدين قدمها على الأرض حتى لا ترهب الحلم وتطرده من ذهنها. ثم تسللت في تلك الحالة وهي شبه نائمة وراء الزائر غير المرئي إلى الخارج في الليل. فزعت الفتاة لما وصلت إلى هناك لدرجة أيقظتها عند رؤيتها الابنة جالسة على ضفة النهر لا تحرك ساكناً.

ظنت الفتاة أن الابنة أتت بالفعل إلى غرفة الفتاة وأيقظتها إلى حلم جديد وأرشدتها فيه لسببٍ ما محدد إلى المكان ذلك بجانب النهر حيث الماء هادئ نسبياً يشبه جدول ماء عريض وبطيء.

تدفقت المياه الباردة البيضاء في الليل الرمادي. عزمت الفتاة أن تستلقي على الأرض وتختبئ عند اقترابها من الابنة ولكن الابنة بدا وكأن لديها حدس عن وجود الفتاة فنظرت إلى جانبها ورأت الفتاة على الفور. لم تقل شيئاً ولكن دعتها بإيماءة أن تذهب إليها ولكن الفتاة لم تطعها وعادت إلى بيت المزرعة وكأنها تختفي من حلم غير مفهوم أو كابوس.

كانت الفتاة تتسلل لاحقاً بالليل يجذبها توق غامض وحزين لمعرفة ما إذا كانت الابنة دائمة الجلوس على النهر أم لا وبالفعل رأت الفتاة الابنة تجلس هناك دوماً. وكانت الفتاة تجلس على الأرض مرتديةً ملابسها التحتية كالابنة ولكن بعيداً عنها وكانت تستطيع رؤية جانب الابنة. كانت

تنتظر ولكنها لم تنتظر شيئاً بعينه بل كانت تنتظر فحسب وروحها محايدة دون انتظار. كانتا مدركتان لوجود بعضهما البعض ولكنهما لم يتبادلا الحديث ودائماً في نهاية الأمر عندما كانت الابنة ترفع ذراعها وتطلب من الفتاة الاقتراب كانت الفتاة تعود إلى منزل المزرعة ولم تطعها وكأنها في كابوس.

في الطريق عبر المرج كانت على وشك البكاء دون الشعور بالحزن ولكن لشعورها أنها كانت تجلس هناك غير مرئية في المكان نفسه وعند النهر عينه الذي تجلس بجانبه النساء في مأساتهم الغامضة لطبيعتهم منذ قديم الأزل وكنٍ يجلسن هناك يوم ممارستهم الجنس الذي ينتج عنه طفلاً يُقتل مادامت الحياة. دون أن يدرين السبب ودون إرادتهن أو حزنهن فكن فقط يجلسن هناك بجوار النهر في برد الليل.

في الليل والفتاة تنتظر وراء الابنة كانت تحرك الجبال في ذهنها كما كانت تفعل أحياناً في النهار حتى تستطيع رؤية الطريق إلى ديارها رغم عدم إمكانها رؤيته من مكانها.

سرحت الابنة طويلاً في النهر ولم تنتبه إلى الفتاة بالرغم من أنها قد أشارت للفتاة بأن تنضم إليها. لعلها أرادت أن يفيض النهر فجأة على ضفتيه ويبتلعها ويسحبها بعيداً لأن الفتاة قد شعرت مرة بشعور ليس ببعيد عن ذلك ولكنه كان مرتبطاً بالأرض فتخيلت أن أذرعاً ظهرت في مستنقع وشدتها من كتفيها ودفعتها بعنف على التربة المتماسكة في ضفتيه. دفعها ذلك التوق الشديد إلى الذهاب أعلى

النهر في ليلة ما وعندما اختفت عن الأنظار التقطت حصاة ملساء من المياه الضحلة على الضفة ووضعت الحصاة المبتلة والناعمة والباردة بين رجليها ثم على سُرتها. كانت تنام بعد ذلك والحصاة على بطنها رغم خوفها من قدوم أحدهم أثناء نومها ومن أن يُرفع اللحاف عنها فيرى الحصاة ويبدأ في الضحك ويصرخ عالياً فيسمع الجميع ما قال "إنها تنام وحصاة على بطنها!"

تحولت أحلامها في ليال عدة لتصبح خطيرة وطيبة. أصبحت الراحة الاستيقاظ ًمن النوم وأن يكون الإنسان حياً أمراً ساراً كلما ازداد عذاب الأحلام. كانت الأحلام الجميلة مختلفة وأصيبت الفتاة بالإحباط إذا استيقظت منها في منتصف الليل فالحياة أسوأ من الأحلام تلك ولكن أفضل من الكوابيس. بدأت الفتاة تتساءل ما إذا كانت الابنة تنام أيضاً في غرفتها وحصاة باردة وناعمة على بطنها من النهر. حصاة مسطحة رمادية جرفتها المياه وضربتها حتى التقطتها الفتاة.

لم تعرف. لم يذكر إحداهما رحلاتهما الليلية ولكن عصرت الفتاة ذهنها عن السبب الذي دفعهما إلى الخروج للنظر إلى النهر أو اتجاه الجبال.

كان هناك قارباً صغيراً بجوار لسان على الضفة يمكن تجديفه عبر النهر. كان العامل يجدفه أحياناً في العطلة الأسبوعية. كان يذهب وحده وكانت الفتاة تراقبه وهو يجدف في المياه الساكنة والهادئة بطول الضفة ثم يدفع بنفسه إلى التيار ويترك المركب ينجرف أسفل النهر وسط

التيار ويختفي في انحناءات النهر حتى يعود بعد وقت طويل وجدف أعلى النهر في المياه الهادئة على الضفة الأخرى.

سألته "لم فعلت ذلك؟"

أجاب "فقط حتى يجرفني التيار. أسعد حين أجلس في مركبٍ صغيرٍ وسط تيار قوي وأشد المجداف وأدع نفسي أطفو بعيداً والأفضل رُبما إلى البحر ولكنه بعيدٌ للغاية سيكون المركب قد تحطم وغرق قبل أن يصل هناك."

لم يكن للمركب وظيفة محددة غير جلب الفرس الداكن الذي اعتاد الفرار. كان قد اشتُرى من مزرعة بعيدة على الجانب الآخر من النهر وعلى الرغم من وقوع المزرعة تلك وراء سفوح التلال ولم تُرى من المكان كانت الخيول تأتي من هناك من حين لآخر إلى ضفة النهر وكانت تصهل. وإن رأتهم الفرس كانت تئن وكأنها غير قادرة على نسيان موطنها الأصلي واليوم الذي كان يهرب فيه ذلك الحيوان الهادئ والعنيد كان المزارع يجدف مع ابنته لجلبه إن كان لديه الوقت.

كان يقول بعد عودته "إن التجديف رياضة جيدة."

بدا المزارع مسروراً بعودة التقاليد الماضية عندما جلبوا كل شيء عبر النهر. كانت الفتاة سعيدة أيضاً ولم تنبهر بما حولها ولكن صوتها بدا مرحاً وقالت أنها لا تتذكر مغادرتها المنزل قط إلا عندما التقت بناس في نفس عمرها وهن بنات المزارع الذي اشتروا الفرس منه. كن دائماً مع والديهن وكن مبتهجات مثل الناس جميعاً الذين تقبلوا حقيقة أن الحياة تمتد إلى مكانٍ محدد أو وجهة كانت رحلتهم

في الحياة قد وصلت إليها منذ زمن بعيد. في نهاية المطاف، فإن مهمة الحمقى الأساسية في الحياة ستندثر في القبر يوماً ما ولكنهم لم يعبأوا بالأمر حتى إن لم يجدوا شيئاً.

"تتذكر الأخوات أموراً كثيرة، نعم أموراً كثيرة نسيتها أنا." قالت الابنة. "بدأت أظن أن الالتحاق بالجامعة والدراسة جعلا النسيان أسهل على الأقل نسيان بعض الأمور مثل جذورك. إن أذهان الأخوات لا يتجاوز حدود خيلهم وأبقارهم. ورحلاتهم من آن لآخر في السيارة أثناء العطلة الأسبوعية تكون لمجرد الاحتفال لفترة قصيرة ربما قضاء ليلة بصحبة رجل ما عندما يتلهفون ذلك. ثم ينتهي الأمر ويعودون إلى منزلهن وكأن شيئاً لم يحدث. ليتني كنت مثلهن. فلدي ذاكرة جيدة للغاية في جميع المناحي تجعلني أشعر بالألم لشهور وربما سنين عند محاولة نسيان الذكريات السيئة."

قالت ذلك لأمها وهي تمرر يدها في شعر الفرس. كان الفرس قوي البنيان وعنيد وكسول. فلم تكن له وظيفة نافعة باستثناء امتطائه في الأماكن التي يصعب سير السيارات فيها بسبب المروج والأراضي المبتلة. إذا ذهبوا في رحلة يوم الأحد كانت الفتاة تركب الفرس.

قال المزارع "إن الفرس عنيد ولكنه وفي فلن ينفر منك ولن يطرحك أرضاً من على ظهره ويعدو بعيداً حتى وإن كانت نهاية العالم وشيكة ويمكنه تجنبها بالجري بعيداً."

كانت الفتاة تُرسل عادةً على ظهر الحصان بالقهوة أيضاً إن كانوا يصنعون التبن في ذلك الجزء من المزرعة

الذي لا تصل السيارة إليه. ثم كانت تدحرج إلى الأمام والخلف على ظهر الفرس حتى بدأ تخطو. كانت الأكواب في السلة يتخبطون محدثين صوتاً مزعجاً في تناغم مع إيقاع خطوات الفرس. كان ظهر الفرس عريضٌ جداً فيستحيل السقوط من فوقه. كان هناك كثير من الصور في المزرعة لأطفال على ظهر الفرس. في إحداها كان يجلس خمسة أطفال على ظهره. وكان ألبوم الصور يضم صوراً كثيرة للفرس هذا دون الخيول الأخرى. كان الفرس يتوقف أحياناً عن السير في مكان ما ولم يكن هناك سبيل ليتزحزح أبداً. ظل واقفاً لفترة طويلة حتى ظنت الفتاة أنها غُطت في النوم. ثم وصلت الفتاة إلى حافة البكاء في يأس من السلوك غير المفهوم للحيوان ولكن ما أن أوشكت الدموع على السقوط حتى بدأ الفرس يتحرك بثقل. حاولت الفتاة أن تلجأ إلى التظاهر بالبكاء حتى تخدعه ولكن الفرس شعر بأن ذلك مجرد ادعاء وحيلة فتوقف فترة أطول من المعتاد كشكل من العقاب.

قال العامل "إن الفرس الرائع ذلك يدخل في نوبة سحر دون سابق إنذار يتأمل فيها الحياة والوجود. احذريه فقد يتحول في يوم إلى حجر. إن شعرت بجزء منه يتحجر اقفزي من فوق ظهره وإلا ستتسرب المادة التي تحوله إلى حجر إلى خلفك وستحولك إلى قزم حجري وتلك النساء قبيحات. "

تخيلت الفتاة في ذهنها الفرس يتحجر وعمودها الفقري يتيبس حتى تحولا إلى تمثال على جانب الطريق وأتى

السائحون ليشاهدوهما وقال المزارع "في يوم من الأيام كان ذلك فرس حقيقي وكانت تلك الفتاة على ظهره حقيقية."

لم يسعدها ما روى العامل من قصص غبية لا نهاية لها فلم تفهمهم تمام الفهم. كانت القصص في غاية الغرابة وأحياناً امتلأت عينا العامل بدموع فرحة عندما نسي نفسه حباً في محتوى القصص وبدا وكأنه لن يتوقف أبداً. ذلك ما استغربته بشدة.

وسألته "لم تروي ذلك الهراء؟"

أجاب "على أن أروي حكايات طويلة أئتمن مذكراتي عليها. علي أن أكتب أنني قابلت غريباً وقال لي كذا في ذلك المكان الغريب. إن مذكراتي هي معشوقتي الوحيدة."

صار العامل حزيناً بقوله هذا فربتت الفتاة عليه. ثم أصبح سخيفاً وحاد النظرات وسرح في الخارج دون أن يركز على شيء وطلب من الفتاة أن تربت عليه مرة أخرى وتخبره بأي هراء يمكن أن يرويه.

كما قال وهو يضحك كالأطفال "أجمع أيضاً حكايات فكاهية حتى أرويها لفتاة ما وأسحرها حين أتودد إلى الفتيات بحثاً عن زوجة."

كانت الأبقار أحياناً تشرد في المساء فكانت الفتاة تمتطي الفرس لتبحث عنهم وتجلبهم. أخذت الابنة صورة فوتوغرافية ملونة للفتاة على ظهر الفرس والغروب في الخلفية وراءها فوق الجبل. لم تصبر الفتاة وأرادت أن ترى

الصورة فوراً فصارت سألت كثيراً عما إذا كانت الصورة قد أرسلت لتحُمض.

أجابت الابنة "لا. لا تقلقي فلن تختفي من الفيلم. من المفترض أن تُلتقط صور للأطفال كلهم الذين يأتون هنا طوال الصيف."

ثم قالت أن الصور ستُلصق في الألبوم وسيأتي أطفال جدد يتصفحونه ويسألون عن الأطفال الآخرين في الصور.

وقالت "إن السنين تمر في لمح البصر ويمضي الوقت حتى أن أحد لن يتذكر شيئاً عن طفولته. وسيقول أحدهم "نعم، لقد كانت فتاة عادية في ذلك الوقت." أنت الآن فتاة مميزة ذات كيان ولكن ربما ستصبحين وقتها امرأة متوفاة أو عجوز منسية وسيسأل الجميع "أتظنون أنها ما زالت على قيد الحياة؟" لن يعرف أحد الإجابة وستكونين في طي النسيان."

صارت الفتاة بفعل تلك الكلمات مستغرقة في التفكير لكنها لم تفكر في شيء محدد غير أن شعرت بأن شيئاً يضغط على عينيها ولم تفهم الوقت وكيف ستتحول إلى لا شيء بمرور السنين. حاولت تأمل ذلك وإيجاد إجابة ثابتة. لكن بعد وهلة بدأت الفتاة تفكر في شيء آخر وفي نهاية المطاف لم تعرف فيما كانت في الأساس تفكر. حتى أول أمس قد نسيت معظم أحداثه ولم يهمها إن كان اليوم سيئاً كسالفه أو جيداً فلا فرق وما يهم إذن إن تحول كل شيء إلى ماض في النهاية ونسي الجميع أسماء الأشياء الواجب تذكرها في وقت محدد؟

كلما شعرت باليأس ورأى العامل ذلك كان يضع يده بدفء على ظهرها بين عظمتي كتفها وكانت تحاول إخباره بما كان يعرفه أفضل معرفة على أي حال وكان ينطق به قبل أن تجد هي الكلمات لتتفوه به. جلس في مساء على مكتبه يكتب مذكراته وقال وهي تراقبه "أفضل شيء على الإطلاق هو نسيان الماضي. أنصحك بأن تبدأي في كتابة مذكراتك."

"لماذا؟"

"لكي تُري رفيقك حين يصبح لك واحد. وحينها سيتمكن من فهمك. دائماً ما أذكر سيرتي الذاتية وحياتي ونفسي في مذكراتي حتى تتصفحها من قد تصبح زوجتي فيما بعد. ودائماً أقول لنفسي حين يتبقى لي بضع صفحات على الانتهاء من المجلد "حتماً سيكون لي معشوقة قبل انتهائي من المجلد." كذلك أفعل حتى أسحر الفتيات وينجذبن لي فلن يتحملن رؤية صفحات المذكرات تملؤها الأماني لكنها تبقى غير مُحققة! لا، فالمجلدات تمتلئ وليس هناك معشوقة في حياتي. فالمذكرات تتراكم وتكبر سيرتي الذاتية ولكن الاحتمالات تقل. كل ما أملأه هي الصفحات ومذكرات لا حصر لها دون معشوقة. ثم أقول لنفسي "إن عجزت عن إعطاء مذكراتك لمعشوقة فيمكن للخلود أن يأخذها كهدية فلن يكون ذلك سيئاً."

وبعد قول المزارع هذا حرك رأسه مبتسماً وكأنه لم يصدق كلمة واحدة مما قال. لذلك ضحك في النهاية.

قال "من الأفضل أن يأتمن الإنسان رسائله عن الناس." لكني أخشى أنني سأكون قد كتبت الكثير عن نفسي حين أجد معشوقة وحين أسلمها كومة الرسائل قائلاً "حسناً، يا عزيزتي إن أردت معرفة زوجك المستقبلي فعليك أن تقرأي جيداً تلك الأوراق الخاصة كلمة تلو الأخرى" وحينها ستقول "آه يا الهي، لن أعبأ بقراءة هذا الكم من الأوراق فالأمر لا يستحق. سأفسخ الخطبة فإني أفضل أن أتزوج من رجل غير شريف وكذاب ليس في حاجة إلى إظهار شهادات وأدلة مكتوبة عن أشياء لا يعرفها سوى الله."

سألته الفتاة لم لَم يتخذ الابنة معشوقة له.

أجاب العامل "أستطيع أن أفعل ذلك بسهولة الآن والإوزة تداوي جراحها بعد الحدث الأخير. إن كانت اتخذتني حبيباً فسرعان ما كانت سترغب في حبيب آخر وكنت سأرغب أنا في حبيبةٍ أخرى غيرها بما أننا تذوقنا طعم الأحباب وكنا سنمضي في سرعة بشأن عواطفنا فكان الأمر سيفشل في النهاية لأنه كان سيصبح من السهل جداً الخروج منه."

قالت الفتاة "لا أفهم."

قال "أنا متأكد من ذلك. ولكن ألا ترغبين دائماً في حلوى أخرى بعد انتهائك من تناول حلوى طيبة المذاق؟"

أجابت "نعم."

"كذلك الأمر مع الأحباب ولذلك فمن الأفضل كثيراً ألا يكون هناك أحباب على الإطلاق. حينها لن تصابي بتعفن في فمك."

الفصل الرابع عشر

على الرغم من أن الطقس جعل الشمس ساطعة في المكان إلا أنه أحياناً أتى بسحب في السماء ربما حتى لا تصبح الأيام متشابهةً من حيث سطوع الشمس وجفاف الطقس. كسر السحاب اللون الأزرق السائد في السماء على فترات حتى أن سقوط المطر أصبح متوقعاً بعد نوبات من الطقس الجاف ودبت في الأرض الحياة وسط رطوبة دافئة.

عندما كان المطر يهطل ويغرق الجميع بمائه كان الجميع يسارع بالدخول إلى منزل المزرعة تاركين الطبيعة في الخارج والطبيعة خارج المنزل باقية في مملكتها. وبسبب النوبات الطويلة والجافة تحولت الطبيعة إلى اللون الأزرق وأصبحت الأمطار أكثر غزارة من الأمطار المعتادة. كان الدجاج فقط من يحوم في المطر ينفض قطرات الأمطار النقية من عرفه الأحمر. شاهدت الفتاة ذلك عبر لنافذة أو من مدخل المنزل عندما أرادت الشعور بقشعريرة البرد الرطبة على رجليها من المطر وهو يضرب الأرض خارج المنزل ولكي تشم رائحة العشب الهش والأرض وهما ينتعشان وفي الوقت نفسه رائحة الدفء المنبعثة من داخل المنزل وهي تداعب ظهر الفتاة.

كان أكثر ما في الأمر مرحاً هو هطول الأمطار الغزيرة وصوت القعقعة يملأ الهواء والقطرات تضرب الكرنب مثل طبول خضراء رقيقة.

ولكن الصوت الأعلى لسقوط الأمطار كان على سقف الحظيرة الحديدي والمموج. ذهبت الفتاة هناك لتستمع إلى صوت الأمطار وهي تهطل بشدة وتمددت على القش وتلاشت في الضجيج العالي الذي ضاهى النوم والهدوء اللا متناهيان من السماء. صوت القعقعة جعل القش يبدو غريباً وجافاً أكثر مما هو عليه واشتدت رائحته اللاذعة والفاسدة واختلطت برائحة التربة الرطبة في الخارج وامتزجت بعطر مريح داخل الفتاة. ولكن لم ينزل شيء من السماء ليستقر على الفتاة ويدفعها إلى القش،لا شيء، فقط صوت قطرات الأمطار وهي تسقط ويليها دمدمة انتهي الأمر بها لتصبح سيل من المياه بأشكال لا حصر لها.

ولدت الأمطار سكوناً في المكان. ساد النعاس المنزل وأثقل الأكل البطون وظل الناس نائمون. انطلقت رائحة أحلام من المنزل عندما اختلس الناس النظرات إلى بعضهم البعض وهي تسبح في نوم تواق تحت جفون ثقيلة. كان المزارع يتلمس طريقه في الظلام في الهواء ليجد الفتاة. كان المزارع متعباً جداً بعد الانتهاء من العمل حتى أنه عندما استيقاظ بعد قيلولة آخر النهار كان نائماً حتى عند تبختره أو عند جلوسه على الطاولة يحك في وجهه. تحدث العامل بكلام غير مفهوم كالسكران وأطلق ضحكات غريبة أثناء شرب القهوة وقت الغذاء. شاهدته الفتاة وهو يدخن في صرامة. وارتشف المزارع قهوته ولكنه لم يقل شيئاً وخرج من الباب سريعاً بالتلسكوب ونظر حوله ولم ير شيئاً سوى الأرض البور تحت الأمطار الغزيرة.

ثم تسلل المزارع إلى الحظيرة وغط في النوم فارداً أطرافه. تمدد فوق القش وكأنه مخلوق عملاق. عندما أُرسلت الفتاة بوعاء بواقي أكل لتطعم به الدجاج دخلت الحظيرة لترى كيف ينام المزارع. كانت تحمل الوعاء الفارغ بين يديها وكانت تنقر عليه بأصابعها ثم تقرع بأظافرها أسفله والعامل نائم كمخلوق عملاق فوق القش. كانت الأيام جميعها سواء بالنسبة للفتاة. كان يُطلب منها باستمرار أداء واجبات منزلية بسيطة والآن لا ترتدي معطفها الأسود الواقي من المطر ولكنها وضعته وكان فضفاضاً فوق رأسها وصوت الأمطار يضرب معطفها الواقي من المطر مما أصابها بالشلل. في اللحظة تلك لم تكن الفتاة تحت المعطف ولا في الحظيرة ولكنها كانت مثل طرد داخل غلاف أسود حجبها عن العالم. كانت كصوص داخل بيضة سوداء ذات قشرة سوداء وكانت تنتظر أحدهم لكي يكسر القشرة ومن ثم تزحف هي إلى الحياة والناس ذلك والعامل يتمدد نائماً نوماً خفيفاً كمخلوق عملاق وراقبته وهي تدق بأظافرها أسفل الوعاء.

ثم توقفت الأمطار وصمت صوت سطح الحظيرة وبدأت الأصوات تعلو في الخارج وسط عالم الطبيعة. بدأت العصافير تزقزق من جديد وكانت السيارات تسير على مرمى البصر في الريف. خرج المزارع إلى المدخل بالتلسكوب ورن الهاتف ورفع العامل ذراعيه العملاقين إلى جانبيه ونهض وجر قدميه خارج الحظيرة وقال وهو

يتمطط بارتياح "تُرى كم من ابنة مزارع حملت والأمطار تلك تروي العشب حتى نمى؟"

لم تستمع الفتاة إليه وكانت تنظر إلى العصافير في المرج. لم تعد تنظر الفتاة إليها كأحجار بنية قذفتها أرواح شريرة من الأرض. كانت قد رأت العصافير أول الصيف تجري أمامها وخلفها. كانت العصافير تتوقف ثم تنظر وتنطلق طيراً وكانت دائماً تنتظر الفتاة وعند رؤيتها تتقدم كانت العصافير تقوم بحيلة فكانت تصدر أنيناً وأحياناً كانت تفرد أجنحتها وتضرب بالأرض بشدة. كانت تلك الطريقة التي تتذمر بها العصافير.

علمت الفتاة من تلك الطقوس أن للعصافير أعشاش في الوحل ولكنها لم تعثر عليها قط مهما حاولت. كان هناك زروع كثيرة والصوص صغير ودون شك لونه كلون الأرض. ولكن رغم أن موعد فقس البيض قد مضى وأن الصوص غالباً ما أصبح دجاجاً إلا أنها ما زالت تشعر وكأنها تدهس بيضة غير متعمدة وتسحقه تحت قدميها وكتلة الدم تخرج من البيضة وتمتزج بالطين خمري اللون في المستنقع. كانت تنتاب الفتاة رعشة كلما فكرت أنها تسير على قدمي قاتلة.

كانت السحب تتعاقب طوال الأيام والأسابيع بألوان مختلفة للأبيض المائل إلى الرمادي في الأفق. ولكن أحياناً كانت السحب تزحف ببطء في السماء تملأها حتى السمت وبدأ السطوع يؤذي بريقه الأعين. والنهر أيضاً بدا وأنه يتدفق صوب قوس السماء ولكنه تخفى في تلك

اللحظة في هيئة ضباب حول حافة الجبل انجرف في خطوط رفيعة محددة وتياره شديد حتى مزقته الرياح الجنوبية الغربية إرباً وأطاحت به في التيار مرة أخرى. في الوقت نفسه أضاء الجبل واختفى النهر في النهر الأصلي ومسحت الشمس المطر وسطعت. جفت الأرض وحرك النسيم الندى على أوراق الشجر ونبحت الكلاب. فردت الفتاة كفها لتشعر بقبلة قطرات المطر الباردة الأخيرة. خرجت الابنة مسرعة تستعجل الآلات ولكن العامل كان منهمكاً في العمل وتصرف بحماقة عندما لاحظ وجودها في مدخل الحظيرة ونادى عليها بصوت مدوي: الشمس في عينيك كالحلم والرياح تصبح فاضحة في فستانك رغم أن فخذاك يستطيعان تحملها وإبعادها ب... يعلم الله وحده بماذا."

صاحت الابنة ضحكاً على العامل ثم تمالكت نفسها.

وقالت ساخرة "دائماً ما تكون مرحاً بعض الشيء بعد قيلولة بعد الظهر."

وبعد وهلة اختفت الابنة على ظهر الجرارة ولم يسمع لها صوتاً سوى غنائها غير المتسق الذي بدا كصرخات وسط طنين المحرك بعيد عن مرأى المزرعة.

نظر العامل إلى الفتاة وابتسم وهمس وهو يلمحها "عزيزتي، هل تعلمين بأمر المطر الذي يمطر على نفسه و...؟"

أشاح بنظره عنها ووجهه يملأه الخزي ثم صمت.

مضت الفتاة إلى داخل المنزل وجلست على سريرها تتساءل بخصوص أمر ما. وفجأة تذكرت الذهاب مع

والديها لمكان ما غير مألوف عند البحر. تمكنت الآن من تخيل الرمال السوداء على الشاطئ والصخور البارزة منه والبرك الصغيرة الموحلة. كانت الرائحة كرائحة مكان بعد سقوط الأمطار وكانت الفتاة ترقد على الصخر وتشرب من مياه البركة. كان طعم المياه يميل إلى طعم الرمال. بمجرد أن لمست شفتاها المياه وشعرت بالطعم هذا لاحظت زهرة صغيرة في صدع عميق بالصخرة. وظهر قوس القزح فوق الرمال السوداء. لم يكن هناك نباتات سوى صخور بارزة وتلك الزهرة ولكن الفتاة وجدت محارة حمراء أيضاً.

قالت أمها "إنها محارة الأسقلوب. المحار هذا دائماً لونه زهري." ثم قال والدها "استمعي." واستطاعت الفتاة سماع البحر واتصل الصوت بالمحارة الزهرية اللون المائلة إلى الحمرة. والآن تمكنت من سماع صوت خرير مياه البحر وهي تجثو منحنية على السرير بالطريقة نفسها التي فعلتها منذ زمن بعيد ووجدت المحارة الزهرية بعيداً عن البحر. أغمضت عينيها واستطاعت أن تسمع صوت العزف على قيثارة البحر ذات اللون الأزرق الفاتح التي امتد صداها عبر الأراضي وغطى لحنها الطريق الذي سلكته الفتاة في الربيع. تحركت فوق التلال عالياً والأخاديد منخفضاً وقفزت فوق الجسور ومن ثم إلى صدرها على مسافة بعيدة للغاية عن المصدر لذا تخيلت الفتاة نفسها تتمدد في الظلام من أجل الزهرة في الصدع حتى وجدت نفسها تنعس وهي جالسة على سريرها.

وكررت ما قاله العامل "هل تعلمين بأمر المطر الذي يمطر على نفسه و...؟"

كادت أن تبكي لعجزها عن الوصول إلى الزهرة بيديها اللتين كانت تفقدهما بالتدريج ذلك الصيف. وضعتهما بتلقائية على صدرها فقلبها كان يتسارع وتملكها الخوف: كانت قد بدأ أن ينمو لها ثديان. تنفست بعمق في تساؤل وفزع وكأن الثديان قد ظهرا مع هطول الأمطار بعد ظهر اليوم. تسللت إلى الحمام لتفحص نفسها أمام المرآة وحتى تحك نفسها دون أن يراها أحد. عندما رأت نقاط حمراء صغيرة تباينت مع جسدها الأبيض شعرت بأنها ستسقط من شدة الخوف وجلست على كرسي بجانب حوض الاستحمام. فجأة خافت من أن تكون قد حملت هي الأخرى من مجرد رؤيتها للعامل وهو يرقد كمخلوق عملاق في القش. لذا أخفضت سروالها التحتي بحذر وهي على حافة فقدان الوعي واختلست نظرة خجولة بين رجليها وحاولت التغوط ولكنها لم تستطع. وظلت الحلمتان ساكنتان على ثديها الأبيض ولكن ربما تحول لونهما إلى الأحمر عند محاولتها الشاقة للتغوط.

سمعت الفتاة أصوات أشخاص يتحدثون عبر الباب وتوقفت عن فحص نفسها فقد عادت الابنة من عملها على الآلات وقرعت الباب عدة مرات دون أن تجيب. ثم قالت الابنة لأحدهم "سيقام عرض البلدة في عطلة نهاية الأسبوع كما سمعت." وصاحت "افتحي الباب يا فتاة!"

نظرت الفتاة نظرة سريعة إلى نفسها ولم تر شيئاً غريباً في جسدها.

فكرت "إنها مجرد تخيلات" وارتدت فستانها بسرعة وحاولت أن تبدو طبيعية.

نادت الابنة "افتحي الباب يا فتاة. أعلم ما تفعلينه بالداخل."

الفصل الخامس عشر

ظلت الفتاة تراقب الحصان الداكن طوال الأسبوع خشية أن تأتيه فكرة الهرب قبيل العرض المقام في البلدة ولن يتمكن المزارع حينئذٍ من عبور النهر تجديفاً ليجلبه وستبقى الفتاة في المنزل أو ستذهب بالسيارة ولن تتمكن من امتطاء الخيل مع الآخرين.

علمت الفتاة أن الناس معتادين امتطاء الخيول للذهاب إلى العرض وترك سياراتهم إلا في حال قدوم المسنين للاستماع إلى الصلاة في الكنيسة في الهواء الطلق.

وعندما اقتربت عطلة نهاية الأسبوع بدأ الجميع في فحص السرج والرباط واللجام وسادت رائحة الجلد المنزل ولاحظت الفتاة شيئاً لم تنتبه إليه قط وهو أن معظم الأشياء الموجودة بالمنزل مصنوعة من البلاستيك حتى الأزهار. غسلت الابنة السرج ولمعت الرباط في مدخل المنزل وكذلك فعلت بالسوط في غرفة المعيشة وتأملت الحلية المعدنية به باهتمام بالغ.

وقال العامل بمزاج مرح "أخيراً سأتمكن من استخدام الآلات ولن أكون خادم السيدة الصغيرة. ولكن كم جميل سوطها فضي اللون ذلك!"

قضت الابنة اليوم في اهتمامٍ بالخيول وأثناء تناول الطعام سردت أسماء الخيول جميعاً التي كانت بالمزرعة وتذكرتها بطلاقة ووصفتهم بالتفصيل. كما أنها أخرجت ألبوم صور وتطلعت في الصور وقرأت عنوانه وهو "تاريخ الخيول" الذي كتبه جيلان سابقان من أسرتها. قامت

بتعليق صورة كبيرة كانت قد اشترتها تضم خيولاً أيسلندية ووصف لألوانهم. وعندما انتهت من ذلك قال العامل كالعادة "من الواضح أن الجواد مفيد للبعض."

لم يعرف المزارع كيف يرد على التعليق المتكرر للعامل ولكنه قال "إن الريف وما يضم عامةً له تأثير صحي على الأناس رجالاً كانوا أم نساءً وصغاراً كانوا أم كباراً."

رد العامل بفظاظة "ليس للنساء."

و قال المزارع بنبرة جادة "ذلك يختلف باختلاف نظرتك للأمور."

فأجاب العامل "ليس هناك سوى نظرة واحدة للأمور."

ثم قالت زوجة المزارع "يعتمد الأمر كلياً على من تتحدثون. وانتهي الحديث."

وفي المساء ذهب المزارع وابنته لتدريب الجياد على المشي بخطوات صحيحة وتفريقهم تحضيراً ليوم العرض. أخذت الفتاة معها مشغل الأغاني ووضعت السماعات في أذنيها ومن ثم قال المزارع أنه حزين لعدم اختراع تلفاز صغير يتم تثبيته على سرج الفرس ليتمكن الناس من مشاهدته وهم على ظهر الخيول. لم تجب الابنة وحرفت الحديث وقالت "ستقدم الفتاة الألمانية عرضاً تقدم فيه فنون ركوب الخيل. يشاع أنها درست بكلية معروفة لركوب الخيل في فيينا حيث تحيي الخيول الناس بأقدامهم الأمامية مثل الكلاب المُدربة ولكنها لا تجلب خُف مدربها أو حذاء الركوب الخاص به بفيها حين يدخل المدرب الإسطبل فهذا شأن يقلل من كرامة الخيول."

تظاهر والدا الابنة بأنهما لم يسمعا حديثها ولكنها نظرت إلى العامل نظرة مترددة وزفرت هواءً سريعاً من أنفها مما أوحى أن والديها لا يتمتعان بحس فكاهي. كان العامل قد ركب السيارة الجيب في إحدى الأمسيات ليرى الفتاة الألمانية وهي تروض الخيول في الإسطبل وقال أنه تفاجئ بقدرة الفتاة على تعلم الأيسلندية على يديه أسرع مما تعلم هو من مهارات ركوب الخيل على يديها.

وقال "أبرع ما تقوم به هو جعل الخيول ترفع أرجلها سريعاً مثل العنكبوت ذي الأرجل النحيلة التي تتلمس طريقها في الهواء لتُشترى. "

قالت الابنة "حقاً؟"

وقال المزارع بصدق "إن الخيول ترفع أرجلها الأمامية مثل أنواع بعينها من العنكبوت الذي يضل عن شباكه."

سألت الابنة "أمن المفترض أن يكون ذلك فناً؟"

أجاب العامل "يعتمد الأمر على رؤيتك لفن ركوب الخيل."

وأضاف بفظاظة "ربما في فيينا وليس هنا في فلوداسل."

وقال "في الماضي كانت خيول الأبطال تهبط من السحب في دوي العواصف ولكنها الآن تخبب في الرحلات وتطلق رغوة في حافة فمها على الأكثر أو تعض على الشكيمة ولكن الفرس يسهُل سوقها فهي تعلم كيف تطيع الأوامر وكيف تتمهل في السير."

أيدت زوجة المزارع فكرة حظر تصدير الخيول الأيسلندية.

وقالت "يجب أن يتمتع الأيسلنديون فقط بالخيول الأيسلندية. ربما يستطيع الأجانب ركوب الخيل أفضل منا كفن ولكنهم لن يكونوا أبداً جزءاً من روح تلك الخيول. تلك الفتاة الألمانية تعلم ركوب الخيل بطريقة صحية للعمود الفقري وأسفل الظهر ولكن الأجانب لا ينتمون إلى ظهور خيولنا العزيزة."

قال العامل "المزارعون الآخرون هنا لا يوافقونك الرأي فهم يبيعون خيولهم غير المروضة دائماً لتُصدر وتُروض ويحصلون في المقابل على مبالغ مالية وفيرة."

ردت زوجة المزارع بحزم: لا يعني المال لي ولا لآرائي شيئاً.

كان هناك خمس مزارع مجاورة وكانت لتشكل المزارع الخمس تلك قرية صغيرة لو أنها لم تكن مبنية على تلال صغيرة شابهت جميعها دلو عملاق مقلوب ذي قبة وكانت خضراء اللون أحجامها متفاوتة ولكن أسفلها ناعم ومسطح. شُيدت المنازل على التلال والمنازل الملحقة على المنحدر على مسافة بعيدة حتى لا يملأها الذباب الذي افترس الحيوانات ويدخل إلى الغرف. لم تكن المزارع بعيدة عن بعضها البعض ولكنها لم تكن على مرأى من السكان وتابع الناس جيرانهم الآخرين عبر التليسكوب في المنزل. تعمد السكان ألا يوجهوا التليسكوب صوب باب المزارع ولكنهم استهدفوا الزجاج السفلي لنوافذ المطابخ. على العكس، كان التليسكوب موجهاً باستمرار إلى نوافذ المطابخ على مرأى من الجميع من درج المزارع صوب

المزارع البعيدة. وبسبب ما كان الجميع هناك يحتفل بعيد ميلاده الخمسين في ذلك الصيف وكانوا يقيمون حفلات كبيرة طوال الليل وكانوا إما يدعون أشخاصاً غير مناسبين أو أنه من الغريب رؤية الناس هؤلاء هناك.

في اليوم الذي انطلق فيه الجميع إلى عرض البلدة اختفت مشاحنات الجيران حول الأسوار كما تلاشى ازدرائهم لبعضهم البعض بسبب تخطي الأبقار مراعي غير مخصصة لهم ورعيهم في عشب المزارعين الآخرين. انطلق الجميع على ظهور الخيول من المزارع في الوقت نفسه تقريباً. انطلقت كل مجموعة من منزلها في صف من التلال ثم تجمعوا على الطريق الأملس والمرصوف بجوار المستنقع والنهر. تبادل الناس التحية فرحين وانطلقوا في مجموعة واحدة وهم يتحدثون بصوت مرتفع حديث متقطع عن موضوعات غير محددة وكأنهم قد هربوا من كل شيء من ماضٍ وعمل يومي شاق وكدح وحيوانات وأرض إلى أرض ميعادٍ يحكمها فرح دائم وحرية مأمولة. تُركت المزارع وحدها في ضوء الشمس على التلال الصغيرة وشابهت لعب الأطفال أو رسوماتهم بغض النظر عن غياب الدخان الأسود المنبعث من المداخن. شعرت الفتاة بأنها وحيدة ولم تستطع أن تفكر في شيء سوى ظهر الحصان الخشن وحاولت تجنب الضربات بالجلوس بثبات في الركاب وحاولت ألا تلتصق بظهره. لم تمضي الفتاة مع الآخرين ولم تواكبهم وتأخرت عنهم بسبب الآلام الكثيرة التي شعرت بها بجسمها. أما الأطفال الآخرين من المزارع الأخرى

والذين لم يعملوا بالمزارع حيث إن أهلهم قد دفعوا ما لاً مقابل بقائهم فيها في الصيف فقد انطلقوا في سيارات الجيب أمامهم هم و كبار السن الضعاف.

كلما تأخرت الفتاة تدريجياً باللحاق بالآخرين وازداد الألم في جسدها كلما أصبحت كعقدة في لوح صلب في عالم غير معلوم مليء بالشمس والتراب في طريق السير على جانب المستنقع المبتل ذو العشب الظاهر في البرك الجبلية اللامعة. وكأنها كانت بمفردها تماماً في السكون حتى أنها لم تعد تسمع الآخرين وغطت سحابة غبار طريقهم بجانب طريق سير المركبات حتى أنها استطاعت أن تشعر بيديها وجود ما هو غير مألوف وشعرت بسعادة حتى أنا خشيت الالتحاق بالأناس الآخرين في نهاية الرحلة. كانت قد تاهت في عالم تائه غير مألوف عندما رأت سحابة الغبار تنقشع وتسقط على الطريق بعيداً عن الابنة. كانت الابنة تسير بالحصان الذي ظل يخب ويدور في دوائر حول رقعة صغيرة من الأسفلت دون النظر إلى الفتاة ولكن بمجرد أن رأتها الفتاة منتظرة إياها لم يكن هناك خيار للفتاة فانضمت إليها شاكرةً ثم ما أن اقتربت من حصان الابنة حتى توقفت عن الابتهاج واستسلمت للأمر الواقع. قالت الابنة "حاولي أن تظلي مع المجموعة ولا تتأخري عن اللحاق بهم وإلا ستتوهين ولن تستطيعي السير بمفردك."

وما أن قالت ذلك حتى سارت بالحصان من الطريق إلى ممر الخيل وجرت بعيداً.

قفزت الأرض وتمايلت الجبال وبدا كل شيء في عيني الفتاة غير واضحاً ومتحركاً إلى أعلى وأسفل وملطخاً وممزقاً. بدت الجبال كالثريد وشعرت الفتاة بوخز شديد بسبب خشونة الحصان. بدا ضوء الشمس مرتعشاً كزجاجة عصير أصفر اللون تُرج. أطلقت الفتاة أنيناً منخفضاً وفمها مفتوح قليلاً لكي تخفف الألم وظنت أنهم لن يصلوا إلى وجهتهم أبداً. سبقتها الابنة وتاهت أحياناً وسط الغبار بجوار الجبل وأحياناً كانت تتوقف وتنتظر الفتاة ثم تسارع بالسير شاعرة بالملل وفارغة الصبر قائلة للفتاة: حاولي أن تسرعي بمؤخرتك لتلحقي بالآخرين.

ظلوا يسيرون طويلاً على هذا الحال رغم أن الفتاة تمنت أن تتركها الابنة وحالها وأن يسير بها الحصان إلى أي مكان ما. ولم تأبه حتى إن ظلوا يسيرون هكذا حتى يأتي عالم آخر دون الوصول إلى وجهتهم. وكأن الابنة قد سمعت أمنيتها فكفت عن التوقف لانتظارها وأسرعت بالحصان في اتجاه الآخرين. وبعد وهلة اختفت الابنة في غبار الممر وعندما هدأ الغبار لم تكن الابنة على مرأى من الفتاة ولا الناس الآخرين.

كانت الفتاة بمفردها على ظهر الحصان.

الفصل السادس عشر

نامت الابنة على الحصان ولم تلاحظ الفتاة ذلك وظنت أنها قد فقدت وعيها أو أنها مجرد نامت على رقبة الحصان ووجهها في شعر عنقه. تمايل الحصان بها فنظرت إلى أعلى وحولها إلى الذين أتوا وضحكت. كان جسدها يؤلمها ورأسها محنياً وحاولت أن تمضي بجانب الابنة التي مضت بحصانها إلى الأمام تضربه بالسوط من حين لآخر.

ردت في خنوع "لا" حيث إن جسدها كان متيبساً وشعرت بألم فيه حتى أنها ندمت على ذهبها هناك.

ثم لحقوا بالآخرين الذين توقفوا لاستراحة قصيرة على ضفة النهر وجلسوا في مجموعة هناك يراقبونهم ويضحكون عليهم وأفواههم مملوءة بالطعام.

عندما اعتلوا خيولهم مرة أخرى ظهرت خطوط ذات لون رمادي فاتح فوق الجبل حيث من المفترض أن يقام العرض في سيرك ناحية الجنوب ومالت قمة الجبل البور إلى الأرض المنبسطة وكأن قشرة الرأس قُطعت منها وافترشت جهة الجنوب. امتد السيرك على شكل حدوة فرس ينتهي عند شريط أرض مسطحة تصل إلى ضفة أحد النهرين. على طرف الأرض كانت الأرض مموجة وبها تلال صغيرة يليها تلال أكبر ثم جبال وأراضي عالية وعشب كثيف في الأراضي الأكثر بعداً.

ذهب الناس في حشود على ظهر الخيل إلى وجهتهم من المقاطعات المجاورة. تركت السيارات الطريق الرئيسي مخلفة وراءها سحابة من الغبار وسارت في طريق مؤدي إلى

الأرض المنبسطة. أما الأناس الذين كانوا على مسافة بعيدة فاختفوا بين حين وآخر في ظلمة الأمطار الغزيرة المائلة إلى الزُرقة. ثم تسللت الشمس مرة أخرى ودفعت الأمطار غرباً بأشعتها.

قالت الابنة للفتاة وهي تضرب الحصان بالسوط فرحة حتى جرى سريعاً "عليك بذل مجهود حتى لا يتركك أحد ويمضي."

ومضت بالخيل بعيداً واختفت مع بقية المجموعة في خطوط الأمطار أمامها على مقربة منها. بدأ الحصان يتمهل في جريه و لم يكن مستعجلاً فكان يعرف وجهته والطريق الواجب أن يسلكه. لم يكن هناك داعٍ للاستعجال فالعرض مستمر حتى المساء.

بدأت البانوراما في الاتضاح كلما مضت بتمهل على الجانب المشمس للأرض المبتلة كما سمعت دوي العاصفة حولها. بدا كل شيء حولها فضي اللون من أرض وسماء تشابكت مع البرك والسحب. بدت البرك وكأنها ترتفع على بعد وتومض في اتجاه السحب والشمس تنشر لوناً أصفراً واضحاً على الجنبات.

توقف الحصان وظل ثابتاً في مكانه في صمت السحاب والأرض التي انبعثت منها سحب خفيفة من البخار في ضوء الشمس. كُسر الصمت أحياناً وأصدرت الأرض على جانب الطريق قرقرة عجيبة عند صعود فقاقيع الهواء لأماكن عدة في المستنقع.

انحنت الفتاة على الحصان وهي شبه مغيبة وانطلق فشعرت وكأنها تسافر على متن سفينة بنية دافئة تبحر جيداً وسط بحر هائج لملاذ لم تعرف هي مكانه. داعبت رائحة الحصان أنفها وحامت ذبابة حولها من آن لآخر. صارت الفتاة الآن تتجاهل كل شيء عندما تمددت إلى الأمام على الحصان ودفنت وجهها في شعر عنقه وأمسكت بيديها أذنيه وشعرت كيف تتحرك أذناه بصعوبة وتهتز بلطف بين كفيها وكأنهما أذني مخلوق غامض.

عندما وصل الجميع إلى وجهتهم فكوا السرج عن الأحصنة وتركوهم طلقاء في الحقل. في اللحظة تلك وصلت الفتاة مع مجموعة من الشباب الذين رافقوها أو ربما تبعوها.

قال أحدهم بأدب جم "ها هي الفتاة الألمانية."

مضت الفتاة بالحصان إلى الأمام بجد ولم تأبه بأحد سواها وامتطائها الحصان الذي رفع رجليه الأمامية عالياً على غير العادة وحركهما بسرعة وكأنه يرسخ كرامته وفي الوقت نفسه عدا إلى الأمام. كانت رجليه متقوسة إلى الأمام ولمست حوافره الأرض لثوان كعنكبوت ذكي يجري على كتلة من الطحلب. كان الوضع يسوده التباهي والتفاخر فالحصان هذا الذي أزاغ عينيه ولوى عنقه وكان رأسه محني لأسفل وفمه به رغوة بيضاء سالت على صدره. ظهر على الحصان انطباع وكأنه يريد ضرب شيئاً ما أو عض عنقه من شدة الاهتياج ولكنه فشل بسبب تحكم الفتاة به ولذا كان فمه به رغوة.

قالت زوجة المزارع "حسناً، يبدو أن فن ركوب الخيل يتضمن تدريب خيل عادي على مشية غير طبيعية وحمقاء."

ردت الابنة بجفاء "لا، إن هذا جميل حقاً فيمكنك رؤية كيف يمكن لشيء عادي أن يُهذب ويصير غير عادياً بترويض جيد. تلك هي الخدعة."

ردت الأم "حقاً؟ فنحن لا نعلم شيئاً عن الخيول إذن؟"

"أنتم لا تفكرون في أي شيء بخلاف فائدة الخيول وعواطف الفلاحين القديمة تلك وقدرتكم على ركوبه أينما تشاءون الذهاب."

قالت أمها "ربما تلاحظين الخيول وهي على ذلك الحال ذات عُرف مقوس ومراوغة لأقصى حد وهو يعدو كثير الانحناء. يبدو الحصان وكأنه يتمنى أن يتحول إلى صدفة بحر تجري."

قال المزارع "هذا ما في الأمر. إن الحيوان يقع تحت ضغط كبير وإكراه فوضعه تحت ضغط يجعله يقوم بتلك الحركات التي تسمى بجميلة."

وشاهدوا ركوب الفتاة لفترة.

قام أحد المرافقين لها بتحيتهم وهو يمر بهم على ظهر الحصان. بدلاً من أن يرد المزارع وزوجته التحية مباشرة نظر كلاهما إلى الابنة سريعاً التي ردت التحية بأن لوحت مرحة وطقطقت أصابعها فرفع يده والتقط الطقطقة بكفه ثم أطبق أصابعه عليها وظل قابضاً عليها.

"أحسنت!" هكذا قالت الابنة بضحكة مسرورة ومنخفضة وساخرة.

قالت امرأة من إحدى المزارع المجاورة "إنه مثل كلب العروض."

بدأت الفتاة الألمانية في جعل حصانها يسير بالعكس إلى الوراء ويصهل ويحثم مرتعشاً بطريقة غريبةٍ وكأنه يتغوط كالكلاب أو يجلس على كرسي أو عرش غير مرئي. ثم بدأ يتمدد بتلقائية وحرك رجليه الأماميتين في الهواء الواحدة تلو الأخرى أو معاً في أحيان أخرى. حين قام الحصان بذلك مالت الفتاة على رقبته وأطلقت زمامه حتى ارتفع في الهواء للحظة ثم انطلق إلى الأمام سعياً وراء حرية سمحت الفتاة بها بقدرٍ محدد حيث تركت الحصان يخبب إلى أمر ما. كانت الفتاة ترتدي بنطلون فروسية أبيض وحذاء فروسية مُلمع وقبعة سوداء مدببة.

قال أحدهم "سيظن الناس أن الفتاة أتت هنا لتستعرض خدعها."

وشاهدها الرجال بريبة وانتباه وابتساماتهم تغطي إحساسهم بالنقص وتعبر عن توق ما. عندما انطلقوا بخيولهم كانوا يجرون بطيئاً دون أن يقفزوا من الأرض. كانوا يجلسون وظهر الخيول بين أرجلهم متمسكين بها بشدة ويميلون على عنق الخيول أما الفتاة الألمانية فكانت تجلس على الحصان جِلسة مختلفة فجعلت الأمر فناً مختلفاً من عالم آخر وحولته إلى شيء ملموس من لحمٍ ودم مملوء بتوق إلى الروحية والفرار.

قال الناس ساخرين "نعم، ذلك الامتطاء قد يناسب الألمانيين الصناعيين والمسرحيين المتكلفين من ريكيافيك

الذين يسعون لجمع مخزوناً من الخيول. في المستقبل قد يصبح ركوب الخيل شأن فني ولكن ليس عندنا نحن المزارعين. ولكن شعر الناس شيئاً ما بأنهم فقدوا قدرتهم على التحكم في الخيول والآن هم يستخدمون السيارات الجيب ولكن عند أخذ جميع الأشياء بعين الاعتبار فإنهم لم يعرفوا قط ركوب الخيل ولكن تحميلها بالأمتعة فقط ولم يفهموا رغبة الخيول في الانطلاق إلى الخيال والأساطير. كانت الخيول بالنسبة لهم خادماً أساسياً لا رفيقاً بأي شكل من الأشكال باستثناء الإلهام الذي يبعثه في الشعر الأصيل وليس توقاً غير ملموس لروح الجمال والكرامة اللائقة."

لهذا السبب أدار الناس ظهورهم وبدا عليهم الحزن ولم يريدوا مشاهدة بقية العرض بل تجولوا على العشب في الرابية نحو ساحة المباريات.

ظل بعض الأطفال بسطاء الملبس متجمعين هناك ولون بشرتهم أزرق من شدة البرد يحملقون في الفتاة الألمانية. بدأوا يشربون الكثير من المشروبات الغازية وكانوا يتسلون بالتجشؤ. كانوا أحياناً يقومون بالقفز في الهواء من فرط الملل ليقعوا على رقعة طين ويضربون بأرجلهم وينثرون الطين على بعضهم البعض. بدا أنهم سيقيمون يوماً رياضياً خاصاً بالأطفال قبل بدء المباريات الحقيقية بين الأبطال الكبار الذين اتخذوا من جانبٍ هناك مكاناً للإحماء وثنوا أرجلهم على الأرض بينما قام شاب صغير بنثر ما شابه دقيقاً أبيضاً في خطوط ودوائر متعاقبة على أرض

الملعب. كانت حارات الجري بين الخطوط المستقيمة الطويلة أما الخطوط الدائرية فكانت لمسابقات الرمي.

اتخذ الجميع بلا وعي عند رؤيتهم للرياضيين سلوكاً رشيقاً ورياضياً أما السيدات العجائز فقلن الواحدة تلو الأخرى بتنهيد "حسناً، لن يستطيع جسدي فعل ذلك ولن يكون هناك أي جدوى من المحاولة."

على أي حال شاهد الجميع تدريبات الرياضيين المدربين جيداً وأصحاب اللياقة البدنية بافتتان ربما ظنوا في داخلهم أن ذلك سيعطي أجسامهم نشاطاً وقوة تمكنهم من قضاء فترة بعد الظهيرة مختبئين في وهم.

الفصل السابع عشر

لم تعرف الفتاة ماذا تفعل وهي في انتظار العرض ليبدأ. جاب الناس في ضجر حول الأرض المقام عليها العرض وهم يتبادلون التحية والسلام. علم الناس بعضهم البعض بالتأكيد هناك ولكن الفتاة لم تعرف سوى الناس التي أتت معهم من المزرعة. تركوها وحدها وانضموا للآخرين فصارت بمفردها وفقدت غايتها والناس يحتفلون.

ثم أُعلن افتتاح العرض وحسن من الوضع قليلاً الكلمات التي قيلت في البداية لأنها حشدت الناس في صمت في مكان محدد. وقفت الفتاة ثابتة وسط الناس ولم تر شيئاً وسمعت القليل ولكن الدفء الذي انبعث من أجسام الناس أشعرها بأنها ليست بمفردها تماماً. كانت الحركة والتجول بلا طائل على المنحدرات والأراضي أسوأ ما في الأمر وكذلك مقابلة أناس لأول مرة فلم تعرف الفتاة أمن المفترض أن تحييهم أم عليها أن تنضم إلى جموع الناس الذين لم تعرفهم.

تجولت الفتاة بتردد في السرادق حيث بيعت القهوة وفي البوابة وقفت امرأة على صندوق مليء بالنقود المعدنية والورقية وكانت النقود مثنية للغاية بدت وكأنها تتلوى سعياً للخروج منه. سألت المرأة الفتاة "مع من أنت؟"

وبسرعة بدت المرأة وأنها نسيت السؤال ولم تهتم لسماع الإجابة فهرعت وراء ساتر غطى أحد أركان السرادق واهتمت بإنجاز أمر ما وراءه حيث حُضرت القهوة

ورُتب الكعك على الأطباق. صدر ضجيج عالي من ذلك المكان.

نظرت الفتاة إلى الريف من ركن السرادق. رأت الأنهار والجبال والأصفر الفاقع اللون المتسلل عبر قماش الخيمة المخيط جيداً الذي أنار المكان خلاله وبدت الخيمة مُنارة وكأن هالة اصطناعية تحيطها أما المناظر الطبيعية كانت خضراء في الضوء الطبيعي وفي ذهن الفتاة الذي اشتعل بالأفكار شعرت أن والديها كانا على مسافة بعيدة من هناك وكأنها دون شك قد ماتا أو كانا غير موجودين تاركين إياها كفتاة غير حقيقية تميل إلى الصُفرة في سرادق بمكان غريب. لذا أجابت الفتاة على سؤال المرأة: لست مع أحد.

ثم رأت أن المرأة لم تعد جالسة على الصندوق فانتظرتها في سكون في ضوء الشمس حتى رجعت وأدخلت النقود في الصندوق بإحكام بكف يدها وسألت الفتاة "ماذا تريدين؟"

قالت الفتاة "لست مع أحد."

نظرت إليها المرأة سريعاً ونادت على النساء الواقفات خلف الستار في الركن البعيد للسرادق وقالت في شرود: "حسناً، ابقي في الخارج إذن."

أطاعتها الفتاة على الفور وخرجت. لم تعرف أحداً من الموجودين بالخارج فتجولت بين المجموعات. فكرت "لو كان عندي حصان لعرضته للناس." ثم ضربت بقدميها في الحقل ذو الأرض الصلبة. وقف عدد من الرجال كبار السن هناك يقيمون حجم الخيول ويروون حكايات مآثر الخيول

الحية وتلك التي ماتت منذ زمن بعيد. وكان هناك شباب صغار يتسكعون على ظهر الخيل خارج الحقل وبدا أنهم سكارى. قرروا أن يبقوا كذلك على الخيل طوال فترة العرض وأن يشربوا بدلاً من النزول.

قال أحدهم "أفضل مكان لشخص أن يسكر فيه هو على ظهر الحصان. وبدأوا يضحكون."

جلست مجموعة أخرى من الشباب على رقعة عشب ونادوا بأنهم سيراهنون على أن الشباب على ظهور الخيل لن يصمدوا طويلاً على الجلوس طوال العرض فحتماً سينزلون ليتعرفوا على فتيات أو ليتبولوا أو حتى سيسقطون على الأرض من شدة السكر.

"لا أظن ذلك. يمكن لأي شخص أن يتبول وهو على ظهر الحصان ويمكنه أن يتعرف على الفتيات."

بدأ الشباب يسردون المغامرات وهم على ظهور الخيل الذين ادعوا بأنهم قاموا بها. حكوا قصصهم الممتلئة بالخشونة والتي طغى عليها الملل وادعوا أنهم غرقوا في الأراضي المبتلة والرمال المتحركة وناضلوا من أجل الخروج من الوحل وأوشكوا أن يغرقوا. تلوى الشباب الجالس والمتمدد على الأرض من شدة الضحك على المآسي والبلاء بينما شعر الآخرون على ظهر الخيل بالرضا عن أنفسهم. ولكن سرت رعشة من التساؤل في الفتاة عندما تخيلت نفسها وهي تغرق في الرمال المتحركة والسمكة الغريبة تلك التي تختبئ هناك تعضها بأسنانها المسممة.

مر الرجال الأكبر سناً والمغرورين بالشباب وعلى وجوههم انطباع من يمتلك أرضاً وحيوانات وأطفالاً كباراً وكثير من التبن. أشع وجههم بالأمان والممتلكات والسُقف الممتلئة بالغنم. وكانوا قد تعدوا العمر الذي من المفترض أن يترددوا فيه إلى النساء بدافع نفوذهم ولكنهم فعلوا ذلك بدافع ضعفهم الجنسي وبإذلال مبتذل.

سارت الفتاة وراءهم و أينما ذهبوا كان الحديث يتضمن الحيوانات وكانوا يرددون باستمرار عبارات مثل "يوم سعيد" و"من الرائع رؤيتك مجدداً" . تاهت الفتاة منهم ولكنها تعرفت على الممثل الذي قدم جزءاً من مسرحية ما وعبر عنها بتعبيرات وجه رائعة. لذا تبعته الفتاة. سار الممثل الآن في أرض العرض كأي شخص عادي وبدا أنه عرف الجميع تقريباً هناك وظل مبتسماً ابتسامةً عريضةً ثم انضم لثنائي بدين من المفترض أن يلقيا الشعر تخليداً لرجال ونساءٍ على المنصة بين علمين.

مضى أمامهم رجلان على ظهر فحلان بأعلام مرفرفة وحملا سارية العلمان إلى الأمام بيديهما اليمنى وسندا طرفهما بالقطعة المعدنية في حذاء ركوب الخيل. ظن الجميع أن ذلك التقليد أيسلندي صرف وجليل ولكن قال شخص ما أن من الواضح أن المزارعين لا يعانون من تصلب في قشرة أصابع القدم لاستطاعتهم حمل سارية العلم على هذا النحو بأصابع أقدامهم.

قال الممثل والابتسامة على وجهه تزداد اتساعاً "يجب ألا يفنى تقليد تخليد النساء الرائدات."

بالكاد استطاع الممثل أن يشق طريقه على أرض العرض فالناس كانوا يوقفونه كثيراً وزعم الكثيرون أنهم رأوه في مكان ما وكان يرد ببالغ اللطف "بالفعل ذلك محتمل" ولكن إن زعموا أنهم رأوه على شاشة التلفاز كان يسألهم "متى؟" وكأنه كان دائم الظهور على الشاشة حتى أنه لم يعد يتابع ظهوره أو ربما لأنه متواضع للغاية لدرجة نسيانه لواقع ظهوره على شاشات التلفاز من الأصل. ذلك جعله يبدو في غاية الطيبة.

أثنت سيدة بصدق على أدواره المسرحية جميعها ثم قال "لدي حلم منذ الطفولة وهو أن أمتلك داراً في هذا المكان البديع في منطقة ريفية مزدهرة كتلك."

أضاف أنه كان يقضي الصيف في مزرعة محلية أثناء طفولته مما فسر حلمه ذلك وكانت قدماه دائماً مبتلة بالوحل ولكن ذلك لم يؤثر سلباً عليه أو على صحته كما قال "إني في صحة جيدة كوتدين." ربما سيشتري أرضاً مساحتها مناسبة لبناء دار صغير يقيم فيها وقتما شاء ليستريح من التوتر ذلكً في حالً أن تمكنوا من إقناعه بتقديم مسرحية جيدة في المركز المحلي.

قالت السيدة "نعم إن تولى إنتاج مسرحيتهم شخص ذو خبرة سيكون ذلك تشجيع رائع لمجوعة المسرحيين الهواة لتُقدم المسرحية في الاحتفال الفني المحلي القادم. ليس لدينا أي تدريب مسرحي على الإطلاق هنا."

قال الممثل "لكن لديكم حب التمثيل وهذا أهم ما في المسرح الاحترافي أيضاً."

أجابت السيدة بابتسامة خجولة "ليس لدينا حتى ما يكفي من ذلك فمستحيل أن تطلب من الناس أن يجتمعوا معاً كما كانوا في سابق عهدهم فهم يشعرون بالغربة حتى في الريف."

قل الممثل "هذا أمر سيء ولكن يمكن تصحيحه بتدريبات الصوت."

بالكاد استطاعت الفتاة سماع الحديث لأن فرقة "البجع" النحاسية كانت قد اعتلت المسرح وبدأت في العزف وصعد ممثلٍ القس المنصة وبدأ يقرع أطراف أصابعه المفرودة سوياً.

انتهت زوجته من قراءة القصائد الوطنية و احمر وجهها عندما رأت الممثل فبعثت بتحية إلى مدير المسرح القومي.

سألته "أنت معه، أليس كذلك. كنت أنا وزوجته في المزرعة نفسها وقدِمنا من ريكيافيك ولكني مكثت تحت الأبقار ولست نادمة البتة على بقائي هنا حتى شاب شعري."

ضحكت وقالت "لا بد وأن زوجات الممثلين يساندونهم بشدة."

رد الممثل "تماماً."

ولما لاحظ أن الفتاة تبعته لفترة طويلة أدار جسمه لها ونظر بحدة إليها حتى ابتعدت عنه.

بمجرد أن هدأت فقرات اليوم وانتهى الرياضيون من مبارياتهم حتى بدأ الناس السكارى ينادون الممثل قائلين "قلد لنا بعض الناس."

وقف أصحاب الأراضي في مجموعات بجانب ساريات الأعلام البيضاء وتناقشوا في اقتراحاتهم قائلين أنهم يمكنهم تحمل أي شيء رغم أن الآخرين كانوا يتطوحون وكلامهم غير مفهوم. رفرفت الأعلام فوق رؤوسهم لأنهم كانوا يتناولون موضوعات هامة للنقاش ومشكلات بلدهم وأمتهم. قام الممثل بتحية المزارعين الأغنياء وكأنهم نظراءه على المسرح ولكنهم بالكاد لوحوا بأيديهم الكبيرة تجاهه في حين انهمرت الكلمات الصاخبة والأصوات المزعجة منهم وضرب العلمان بعضهما البعض من آن لآخر بشدة بسبب عصف الرياح القوي.

بدأت فرقة الآلات النحاسية في العزف مرة أخرى على المنصة. ارتدى العازفون زياً أزرقاً وقبعات بيضاء ذات حد أسود وشارات بها تروس. كانت هناك بجعة بيضاء تسبح وسط التروس والخلفية كانت زرقاء بحدود بيضاء من المفترض أن تمثل المياه أو البحر. كانت جميع المقطوعات الموسيقية المعزوفة أناشيد عسكرية خفيفة رغم أن معظم المدعوين لم يستطيعوا الوقوف على أقدامهم باستثناء بعض النساء كبيرات السن.

فجأة اختفت الفرقة وكأنها تلاشت في الهواء. كانت المنصة فارغة لوقت وبدأت السماء تمطر فلمع الخشب كاللون الأبيض في الرطوبة ثم تحسن الطقس وسطعت الشمس على المنصة وترقرق الماء في سحب بخار خفيفة مخلفةً بقعاً جافة وراءها. ثم عقبتها فرقة الرقص التي اعتلت المنصة وبدأت في العزف.

تجولت الفتاة في الأرض سعياً لإيجاد مكان تختبئ فيه لآخر اليوم حتى يفكر الناس في العودة إلى منازلهم ولكنها لم تعثر على مكان غير مزدحم. في كل بقعة خضراء في الأرض كان هناك رجلاً نائماً فوق امرأة ليحميها من المطر. أنزل الرجال السراويل وكانت أسفل ظهورهم عارية وبيضاء اللون. عندما مرت الفتاة بإحدى الرقع نزع رجل كان يغطي امرأة تحته قبعته وحيا الفتاة برأسه دون أن يتحرك من فوق المرأة التي صرخت "على من تسلم الآن وسط هذا؟"

قال الرجل بوقار وهدوء دون أن يرد على المرأة "يوم سعيد يا فتاتي." أدارت المرأة رأسها ونظرت إلى الفتاة بغرابة وصاحت وهي تلهث "عليك أن تخجلي من نفسك أيتها الحقيرة. في تلك السن وتحملقين في الكبار وهم منهمكين في العمل؟ اغربي عن وجهي."

في تلك اللحظة هزت المرأة رأسها وضحكت وشبكت ذراعيها وأخرجت لسانها بين شفتيها وحركته في وجه الرجل الذي قوس عنقه ورأسه وخلع قبعته ورماها في الهواء ثم حيا مجدداً الفتاة كثيراً التي وقفت في نفس البقعة مذهولة تشاهدهم ثم رجعت إلى قمة التل. عندما نزلت التل ونظرت إلي الطبيعة حولها وأعجبتها رأت جميع أعضاء فرقة "البجع" متفرقين في المكان بقمصانهم البيضاء فوق النساء على المنحدر ليحموهن من المطر. كانوا قد أنزلوا سراويلهم الزرقاء وكانت أسفل ظهورهم عارية. بجوار كل منهم آلته الموسيقية التي نفخ فيها بكل ما

أوتي من قوة على المنصة فيما قبل ذلك اليوم. لم يخلع أحدهم قبعته المحددة. ظلت الفتاة تشاهد طويلاً التل الملتوي في المطر. وعندما كانت تتأمل الفرقة لوقت طويل وقف أحد العازفين وكأنه يقوم من عش وسرواله حول كاحليه ثم التقط بوقه اللامع والبَراق لأن الطقس تحسن ونفخ فيه قوياً وعالياً حتى شعرت الفتاة بصفعة هواء مزعجة على وجهها. تراجعت إلى الخلف وهربت خائفة. وهي تجري لاحظت الرجال الآخرين يقومون سريعاً لأن الشمس سطعت الآن ولم يكن هناك حاجة إلى أن يناموا فوق النساء ولمعت الشمس على النساء العرايا وهن في مواضع مخجلة. عندما ابتعدت الفتاة عنهم بالفعل سمعت الآلات تدوي خلفها من كل رقعة أرض بصوت عال حتى ظنت أن العازفين يتبعونها بطيئاً ويهددونها وسراويلهم مرفوعة والقمصان البيضاء ذيولها متدلية وهم ينفخون في الأبواق الفضية في فيهم بين وجناتهم المنتفخة. ولكن عندما تجرأت على النظر ورائها لم تر شيئاً سوى السحب البيضاء فوق التل والسماء الزرقاء المغتسلة حديثاً بالمطر. ثم جلست على رقعة أرض منخفضة وهي تلهث حيث لم يوجد أحد والتقطت أنفاسها وأصابعها على فمها.

فجأة ظهر مزارع كبير السن وبدأ يتفحصها وما أن انتهى حتى سألها "هل أنت من مكان قريب؟"

"لا"

"إذن أنت من المدينة."

"نعم"

"حسناً، إنك صغيرة جداً على الجلوس على العشب."

أنَّ الرجل ونظر إليها نظرةً حادة.

"ليس من المفيد للفتيات أن يذهبن بحثاً عن ثمر التوت قبل أن يصبح لونه أزرقاً وناضجاً تمام النضج والسلة جاهزة لاستقباله. ولكنني كنت أبحث عن أصدقائي لأدعوهم لشرب القهوة."

ثم سألها عن عمرها.

"تسع سنوات"

فقال بعد أن نظر إليها طويلاً "حسناً فلنشرب نحن القهوة على الطراز القديم ولكن لا يعني ذلك أنني لا أحب التوت الأخضر وما شابه."

كانت الشمس ساطعة للغاية حتى أن الرجل أغمض عينيه وبدأ يسألها عن معارفه وكأنها تعرفهم لأنهم ضلوا عنه.

"هل رأيتينهم؟ يسهل التعرف على زوجتي العجوز."

أجابت "لا، رأيت فقط فرقة العزف."

قال "نعم، من لديه بوق لامع وبراق يمكنه أن يفعل ما يشاء ولا يأبه بالأحياء الأقرب حالاً للموتى."

بمجرد أن انتهى من الحديث أصبح الهواء حولها في رقعة العشب المنخفضة دافئاً. لم تجرؤ على المغادرة وظل الرجل ينظر إليها.

قالت "سأريك فرقة الآلات النحاسية."

قال "إذن فلتأخذي بيد هذا الرجل غريب الأطوار حتى يقف على قدميه."

تحول كل شيء إلى لعبة في الحال. قبع الرجل سروراً عندما تشبثت به وضحك. لم يترك يدها بعد ذلك ومشيا ممسكين الأيدي في اتجاه ساحة العرض. سار الرجل بثقل وقفزت الفتاة وهي مليئة بالحياة على العشب حوله دون أن تفك يدها من قبضته. كان الرجل ذراعيه طويلان على غير العادة مما سمح لها بالقفز على مسافة عنه. بدأ الناس ينظرون إليهما حيث أتيا من الجهة العكسية لأرض العرض. كان هناك فتاة صغيرة تترجل مع شاب صغير ليس بعيداً عن المكان الذي جلسا فيه و ركضت في اتجاه الرجل المسن.

قال للفتاة بلطف وابتسامة غامضة ارتسمت على شفتيه "تلك ابنتي. الثنائي هذا لا يمسك يديه مثلنا."

سألته الابنة وكأنها كانت تبحث عنه "أين كنت تختبئ؟"

مشى الشاب فجأة بعيداً وكأنه لم يعرف الفتاة.

سأل الرجل المسن "أين؟ ألا تفترضين أننا كنا وسط العشب مثل الجميع؟"

قالت الفتاة "أعني أنت وأمي."

"أمك قد ضلت وذهبت لتنشد وأنا ضللت الطريق أيضاً رغم أنني أعرف المكان هنا."

تبسمت الفتاة وهي غير مصدقة له وقالت ساخرة "أنت تحب أن تضلل نفسك أيها المسن الغريب الأطوار ولكنك كبير لدرجة أنك لا تستطيع تضليل نفسك جيداً. فأنت لا تتوه بالليل فما بالك بهنا في منتصف اليوم والناس كُثرٍ حولنا."

ثم ساندت ذراع الرجل وسارت إلى جانبه. تحركت الفتاة بثقل خلفهما وهو ممسكٍ بيدها ثم فك قبضته عنها. مشت بتردد إلى حدٍ ما مجروحةً وراءهما وسرعان ما شعرت بالانفصال التام عن العرض مرة أخرى رغم سطوع الشمس وتعرفها على رجل طيب مسن.

الفصل الثامن عشر

بدأ الرقص على المنصة حيث أُلقيت القصائد تخليداً للنساء فيما قبل وحيث عزفت فرقة الآلات النحاسية المقطوعات. كان الناس يهبون للرقص باستمرار يعبرون عن عواطفهم أكثر من مجرد العناق ويأخذون بعض الخطوات هنا وهناك ويتمايلون إلى الأمام والخلف باضطراب ولكنهم لم يبقوا على المسرح طويلاً وبخاصةٍ الشباب. إن سأل أحدهم فتاة لتراقصه كانا يتمايلان بخطوات قليلة ثم كانت الفتاة تحرك كتفيها ورأسها وكأنها مشوشة لا تعرف هل تضع خدها على كتف الشاب أولا. وقبل أن تقرر كانا قد نزلا من المنصة واختفيا وسط العشب. على الصعيد الآخر كان هناك نساء ممتلئات يرقصن مع بعضهن البعض في نفس المكان في ركن محدد وبعض الأشخاص الأكبر سناً لم يغادروا المكان. كانوا يرقصون بالخطوات والحركات نفسها وكانوا يديرون رأسهم يساراً ليشاهدوا الذين غادروا أو يرفعونها إلى اليمين ليرونهم وهم يمضون بعيداً عن المنصة. كان بين الراقصين رجل في منتصف العمر وامرأة كلاهما متأنق في ملبسه ومتعطر مرتديان ملابس فضفاضة وظلا ويرقصان رقصة فنية حسب ما سمعته الفتاة من الناس الواقفين على السور حول المنصة "هما يأتيان للرقص من أجل الرقص وليس للتودد لأحدهم."

تمايلت الفتاة إلى الأمام في فستان أبيض ضاهى وسعه اتساع الابتسامة المتحفظة على وجهها. قفز الرجل بخفة وهو يحملها بين ذراعيه وفي اللحظات التي توقفا فيها نظرا إلى عينيهم قبل أن يدفع بركبته بين رجليها ثم بالركبة الأخرى وبالطريقة تلك على الإيقاع المتناغم ثم أرجحها إلى الخلف فاتسعت ابتسامتها وفتحت فمها وكأنها ستبتلع بعض قطرات المطر. ثم جذبها برقة لتقف وكأنها ترقد على فراش الموت على الكم الأسود لسترة العشاء التي ارتداها الرجل. ثم استيقظت ببطء بابتسامة حنونة من نشوة السرور التي شعرت بها ولمعت عيناها بإثارة صامتة لمشهد الحياة وظلوا يرقصون بالطريقة الفنية تلك طوال اليوم ولم يذهبوا إلى التجول على العشب ولو لمرة. حتى إنهم لم يذهبوا إلى سرادق القهوة لوهلة أثناء هطول المطر قصيراً ليأكلوا أو يشربوا أو يشعروا بالدفء أو حتى مقابلة معارفهما ليقولا "لقد مر زمن طويل منذ أن تقابلنا."

قرر الناس أن يناقشوا كيف سيتقابلون فيما بعد مما أتاح الفرصة للجميع بأن يجددوا معارفهم ويلتقوا بانتظام عدة مرات في السنة فالناس في المقاطعة الواحدة وحتى الجيران بالكاد يعرفون بعضهم البعض في وقتنا هذا.

جلس النساء بمفردهن على طاولة طويلة يثرثرن ويتناقشن في ضرورة إقامة ملعب ترفيهي محلي للأطفال بالإضافة إلى حضانة وصالة تزيين للسيدات ومركز تدريب اليوجا لربات المنزل حتى يحافظن على رشاقتهن وأن على

النساء ترك سيارتهن بجانب أقرب بركة وأن أفضل شيء أن يحصل الريفيات على مدرب محترف يعلمهن الجري بين المزارع فالطبيعة زاخرة هناك. تلك هي الطريقة التي جعلت النساء في الريف يقمن ويتحركن.

صاح رجل سكران "عليكن أيتها النساء القرويات أن تتدربن على كيفية أن تصبحن عذارى مرة أخرى!"

صرخت النساء ضحكاً.

وقلن "حسناً، نشكر الرب على وجود الرجال السكارى أصحاب الألسنة التي لا تسكت أبداً."

جلست الفتاة على طاولة خالية طويلة وأحضرت بعض القهوة. جلس على طاولة بجانب طاولتها رجل سكران في منتصف العمر وكان جالساً هناك لفترة طويلة وتجنبه الناس ونفروا منه لأنه كان يثور غضباً من وقت لآخر وكان مزعجاً ويتصرف بغرابة بالمقارنة بالناس هناك. إن شرع في التحدث إلى من يشربون القهوة كان يلفظ بهراء ويقوم بحركات لم يفهمها أحد. عندما اقتربت الفتاة لتجلس إلى جواره كان يفصلهما مسافة مناسبة وبقى الآخرون وقليل من الناس في الخيمة بالرغم من المطر المتواصل الذي سقط وصوته الذي كان هادئاً يبعث على النوم. خلع الرجل فجأة سترته ورفع أكمام قميصه.

قال وهو يريها ساعده حيث كان متشققاً شقوقاً عميقة وكان الجلد متسلخ ولونه أحمر ومغطى بالصديد. انظري.

سألها واقترب بجبينه منها حتى أنها شمت رائحة الخمر في نفسه "هل تعلمين ما هذا؟"

بدا أن الرجل وجد صعوبة في التنفس حيت اقترب بجبهته من الفتاة واستسلم لنوم عميق ومريح ولكنه غاضب. كان الرجل نفسه عظيم الجثة وأطرافه طويلة وعريضة رغم نحافته. والآن قد فقد القدرة على الكلام وخرج الهواء من صدره بصعوبة مثل موجة مضطربة متقلصة تصطدم برغوة متناثرة بين الصخور الضخمة على الشاطئ.

أجابت الفتاة أخيراً "نعم، لا أعلم ما هذا؟"

أجاب مرهقاً في أذنيها "إنها الشمس فقد عرضت ذراعي للشمس طوال الصيف وتلك المخلوقة السماوية آكلة لحوم البشر كانت تلتهم لحمي بأشعتها النهمة. تلك الأشعة هي الشوكة التي غرستها في لحمي المطهي."

بدا الحزن على الرجل واستغرق في التفكير.

نظرت الفتاة إليه بطرف عينها ثم تفحصت اللحم المتورم على ساعده وكان بني اللون ومتقوس وبه شعر واتساخ خفيف. ثم دفع يده نحو وجهها.

وقال "انظري يا فتاتي الصغيرة العزيزة فالشمس ثقبتني بنصل شوكتها."

نظرت الفتاة إلى ذراعه وتمنت أن يمسك الرجل برأسها بيده الأخرى التي بالتأكيد كانت ستغطي رأسها بالكامل حتى أن أصابعه كانت ستصل إلى أذنيها ورغبت أن يدفع برأسها إلى اللحم المحروق والمتجعد فتختنق أنف الفتاة ويختنق فمها ولن تستطيع التنفس فستغرس أسنانها في القرح فيتدفق الصديد بين أسنانها مثل الدهن الأصفر.

خافت الفتاة من تلك الرغبة غير المتوقعة وشعرت بغثيان شديد في معدتها وكادت أن تستفرغ ولكن سرعان ما حلق ذهنها في صدع قاتم حيث البهجة والدفء المطمئن الذي شاب رائحته رائحة الخمر المالح والحلو في معدة خاوية. ونهضت الفتاة.

ترجاها الرجل قائلاً "لا تتركيني" وحاول أن يتشبث بها بوهن وهو يقول "سأخبرك المزيد عن الشمس."

غادر المزيد من الناس الخيمة والآن كان الرجل والفتاة يجلسان وحدهما على الطاولة الطويلة وكان يغطيها مفرش أبيض به بقع قهوة وكان قد تجعد بسبب ذراعي الرجل وطارت منه أجزاء لتكشف عن الطاولة الرثة تحته. غادر تقريباً الجميع باستثناء رجلين وامرأتين وقفوا يضحكون على البوابة وسط ضوء أصفر فالشمس سطعت في تلك اللحظة في ركن جعل السرادق نصف شفاف مشعاً ضوءاً أصفر عليهم. أما الطاولة الطويلة بجانبهم فكانت ممتلئة بالأطباق المتسخة وسكاكين وأكواب.وكانت بعض المناديل قد سقطت على الأرض وداس الناس عليها وسط العشب.

بدأ الرجل يحكي وهو يلهث قصة للفتاة وكانت القصة غير مفهومة ومفككة ولكن عاطفية وكانت عن الشمس وهو محني على الطاولة المغطاة بالمفرش منهمكاً في الموضوع حتى أنه لم يعد ينظر إلى الفتاة. فتسللت والتقطت المناديل من الأرض وقامت بطيهم على شكل عصافير ورقية. خفت ضوء الشمس واختفت تدريجياً فوق الخيمة.

استشعرت الفتاة أن الوقت قد تأخر ولا شك أنه حان وقت الذهاب إلى الحقل وفك زمام الحصان وانتظار أن يأتي الناس من المزرعة. ولكن جذبها الرجل وتركته يمسك بها بقوة في الوقت الذي غربت فيه الشمس على الخيمة وساد ظلام دافئ المكان وتغير كل شيء من إشراق مثير إلى واقع على الأرض. أصبح المكان مظلماً داخل الخيمة وانتشر البرد في الوقت الذي انتشرت فيه رائحة العشب الرطب بسبب مشي أقدام كثيرة عليه. جعل ذلك منظر الطاولات كطاولات متسخة والأطباق مجرد أطباق متسخة.

قدم النساء من وراء السرادق وهم يتحدثن بصوت مرتفع وبدأن يجمعن القمامة على الطاولات وخلع المفارش من فوقها حتى شعرت الفتاة بأن ما ظهر رائع وعظيم أصبح بائس وعار في لحظة بعد الكشف عنه.

ثم قال الرجل "سأحكي لك عن الشمس التي تأكل لحم الإنسان إلى الأبد. ولكن بدا أن الرجل لم يكن عنده ما يضيف من كلام."

كان الرجل يصارع من أجل التنفس ولم يستطع مواصلة الحديث أو إخراج الكلمات من فمه بالهواء من رئتيه. جلس الاثنان على هذا النحو على الطاولة الأخيرة التي غطاها مفرش أبيض وقام الرجل بوضع قبضته على فمه عدة مرات.

رأت الفتاة من مكانها عبر باب الخيمة الأمطار تسقط والعشب خارج المدخل يمتص الماء وآثار الأقدام في الطين تمتلئ بالمياه ثم عادت الشمس ولكنها سطعت قليلاً على

سقف الخيمة المائل إلى الصُفرة ولكنها نشرت ضوءاً خافتاً في الخيمة مرة أخرى.

فجأة ترك الرجل الفتاة ترحل فمضت بحذر مبتعدةً عنه ورحلت ولكنها ظلت تختلس النظر داخل الخيمة وآخر ما رأته أن الرجل كان جالساً وحده والمرأة الواقفة على المدخل تعد النقود وتفردها وتضعها في صندوقين واضعة حجراً على النقود.

تسللت الفتاة بعيداً عن السرادق بطيئاً كالحلزون حتى تستطيع رؤية السرادق من الداخل كلما مضت بعيداً. جلس الرجل كذلك على الطاولة الطويلة دون مفرش واضعاً قبضته على جبينه يشاهد الفتاة وهي ترحل أو هكذا ظنت.

عندما وصلت إلى الحقل شعرت بالخوف من الصيف والشعور الغريب بالضيق الذي ظل يطاردها تلاشى من جسدها كلما فكرت في الرجل المُشوش ذو الساعد المحترق من الشمس. فتخيلت أنها تغرس أسنانها في الساعد وقررت أن تركز تفكيرها على الذراع المتورم من أجل شيء واحد وهو أن تتخلص من خوفها عن طريق عض التقرحات المحمرة تلك الميئوس من شفائها.

الفصل التاسع عشر

امتطى عدد كبير من الناس الخيول ومضوا من نقطة التجمع معاً. مضى في بادئ الأمر مجموعة كبيرة من الرجال المترنحين والنساء المزعجات الذين ضحكوا على بعضهنٍ البعض وتبادلوا الحديث لمضايقة الآخرين. كانوا جميعاً يركبون جياد أصيلة ولكن ما أن وصلوا إلى مفترق الطريق حتى بدأت تقل أعدادهم وذهب الناس في اتجاهات مختلفة. ظل الوضع كذلك عند وصولهم كل مفترق طرق وترك أفراد أو مجموعات بأكملها تدريجياً بقية الركاب في القافلة واتجهوا إلى مزارعهم.

مرت عدة سيارات بالقافلة وأطلقت نفيراً لإخافة الخيول. عادة يكون أولئك الشباب من خارج المقاطعة. وذهب قليل من المزارعين اليوم إلى العرض بسياراتهم حتى يوصلوا كبار السن إليه ثم قاموا بإعادتهم إلى منازلهم بعد أداء واجباتهم الاجتماعية وبعد مضي اليوم. عاد المزارعون بعد ذلك إلى العرض على ظهور خيولهم. أراد المزارعون أن يثبتوا أنهم مزارعون حقاً من خلال ولائهم للأحصنة وأرادوا أن يثبتوا أنهم يستطيعون الحياة بدون الاعتماد على المركبات المميكنة وأنهم ارتبطوا بفطرتهم السليمة إلى الخيل الأصيل. وليؤكدوا على المبدأ هذا كانوا يستنشقون التبغ ولكنهم عطسوا بسببه حيث لم يعودوا يعتادونه وتحول لون شفاههم العلوية إلى اللون البني وبدوا كالأغبياء. لم يستنشق الشباب التبغ إلا في العروض في

القرية ولكن أعداد من واصلوا هذا بدأت في التضاؤل أيضاً.

وقالوا "إن استنشاق التبغ ليس تقليداً أيسلندياً فالأمر أشبه بالفوضى."

كان معظم العائدون إلى منازلهم سكارى ولكنهم حاولوا ركوب الأحصنة بوقار وفي طريقهم كانوا يضحكون ويغنون الأغنيات الوطنية والقروية وبمضيهم إلى الأمام لم يعد مسموع غير اللحن واستُبدلت الكلمات بدوي "ترا-لا". أصبحت الأغنيات الوطنية رثة في ذاكرة الناس على الرغم من أن الشباب كانوا تواقين إلى دندنة الأغنيات تلك وهم سكارى لكن دائماً ما تواجد أحد يعرف الأغنيات بإيقاعها السليم وكان يقود الغناء ثم لجأ الآخرون إلى خدعة ذكية وهي التأخر قليلاً في الغناء لوقت كافٍ حتى يحفظوا الكلمات التي يغنيها المغني الرئيسي ثم يلحقون به دون أن يخرجوا عن النغم ليبدوا وكأنهم يعرفون الكلمات.

حتى اللعبة التحزيرية تلك أصبحت شيئاً من الماضي فالشباب الآن ينعمون بالحرية ويقولون صراحةً أنهم لا يعرفون الكلمات ولا يأبهوا بمعرفتها. رغم أنهم يشعرون بداخلهم بضرورة أن يحفظوا كلمات الأغنيات الوطنية العاطفية تلك حتى يغنونها في عروض القرية ولكن الأمر لا يستحق تعلمها لأن العرض يقام مرة واحدة في السنة فقط. لم يهتم الناس وزد على ذلك ففي اليوم التالي لم يتذكر أحد إن كان الآخرون يعرفون الكلمات أم لا وإن

كانوا قد غنوا مقتطعات من الأغنيات أم مجرد دندنوا معها فالجميع كانوا سكارى ولم يتظاهر أحد بتذكر أي شيء أسوأ أو أكثر سوءاً من عدم معرفة كلمات الأغنيات الوطنية. كانت الأغنيات قصيرة ولكن عند مواصلة الغناء كانت المجموعات تبدأ في الدندنة في بهجة وسرور وعند محاولة أحدهم انتهاز فرصة للغناء بالإنجليزية كان الجميع يسكتونه.

تذمرت النساء بشأن استنشاق التبغ ولم يفهمن ما المقصود من الأمر ومن استنشاقه عبر الأنف بالطريقة تلك. كانت النساء يدخن السجائر على ظهر الخيول وقلن أنهن ليس بأقل من أن يفعلن ذلك. كما شربن الخمر من الزجاجات مباشرة كالرجال وعلقن أكياس ممتلئة بزجاجات البيرة بالسرج أو حملن علب البيرة بيدٍ واحدة. لم يردن أن يكن أقل من الرجال في أي شيء. وعند سير المجموعة شكلت النساء مجموعة منفصلة تدريجياً عن المجموعة الرئيسية وواصلن النقاش عن مكان اجتماع النساء المحليات وإقامتهن لمؤسسة نسائية للسيدات فقط وقالت إحداهن: على المقاطعة أن تتشجع وتأتي بمدرب جودو محترف من اليابان.

رحبت المجموعة بالفكرة وسرن بالقرب من بعضهن البعض ليشربوا نخب الاقتراح. ثم حاولن تذكر عدد خريجي الاقتصاد من بين مزارعي المقاطعة وكان عددهم كبير أغلبهم يدير مزارع تهجين. تعجبت النساء من

عددهم ومن نقص عدد المدرسين المؤهلين في مرحلة ما قبل المدرسة في المقاطعة.

وقلن "هكذا نُعامل نحن النساء. ولم يقبلن حقيقة نقص أعداد التربويون المؤهلون الذين من شأنهم إدارة المقترحات بشأن الملعب."

الرجال والنساء على حد سواء أبناء المقاطعات تلك والذين يدرسون الطب والتمريض ينتقلون إلى المدينة ولكن الاقتصاديون يعودون إلى آباءهم في المزارع.

تلك صيحة غريبة تتجه في الطريق الخاطئ.

قالت إحداهن "ربما نحن القرويون ننعم بصحة جيدة فلسنا في حاجة إلى مساعدة طبية أو تمريض. ثم شربن نخب كلامها."

ولكن لدينا مُساعدة قس.

وأجمع النساء على رغبتهن في عيش حياة صحية وأن يصبح الريف مماثلاً للمدينة من ناحية اللياقة البدنية.

وقالت إحداهن "يمكننا أن نوصل أطفالنا إلى الملعب في الصباح ثم نلتقي ونقرأ الحظ باستخدام أوراق التاروت."

ثم شربن نخب هذا المقترح من الزجاجة مباشرة.

كن متوازنات بدرجة كافية فقررن أن يكتبن في تلك اللحظة جدولاً بما سيقمن بفعله في المستقبل من لعب الأوراق وتعلم الأشغال اليدوية وحضور صفوف الرسم ودراسة التعبيرات المسرحية والتدرب على مهارات التوعية تحت إشراف مدرب توعية مرة أسبوعياً.

ينقصنا للغاية في المنطقة مجموعات مهارات التوعية ولغة الجسد أيضاً.

ثم تركن المجموعة مع أزواجهن وتوجهن كلٌ إلى مزرعته عازمين أن يلتقون بشكل متكرر لشرب القهوة وأن يتركن الأطفال وأن يسكرن ويتصرفن مثل الرجال المؤمنين بتفوقهن على النساء من أصحاب السلوك غير القابل للإصلاح وأن يروين قصص قذرة وأن يتذوقن مخبوزات بعضهن البعض. وأقسمن أن يعقدن اجتماعاً هزلياً لتحرير المرأة تحت عنوان "لجنة نساء جنوب أيسلندا للمخبوزات" حيث سترتجل كل منهن طريقة تحضير الخبز وسيحضرن الكعك في اللحظة نفسها."

وضحكن على ذلك وعلى حس الفكاهة النسائي قائلين "إن الأمر برمته مُزاح."

خيم التفاؤل على الرجال والنساء وتناقش الرجال في أمورهم أيضاً. كانوا مهتمين بفكرة إقامة شركة تسويق مباشر للمنتجات المشتقة من البطاطس الأيسلندية الحمراء.

قال أحدهم أن الفكرة راودته لفترة طويلة وهي إقامة مصنعاً صغيراً لإنتاج نوعاً خاصاً من البطاطس للسوق المحلية مثل البطاطس المملحة والأخرى المشوية لغذاء يوم الأحد والبطاطا الحلوة كتحلية بل وتجربة البطاطس المحشوة بالنكهات الغريبة مثل التي تذوقوها في رحلة اتحاد المزارعين عندما ذهبوا إلى سنغافورة ليمرحوا وليتخلصوا من كآبة الشتاء وليشاهدوا المتحولين جنسياً وعادوا جميعهم مفزوعين من وجود ذلك في الحياة رغم أنه من الطبيعي أن

تُجرب تلك الأشياء- "لكن الفرق يعتمد على نظرتكم للأشياء."

وقال "إن خلق منتج للبيع من البطاطس الأيسلندية أمرٍ بسيط. وبالطبع يمكن إقناع الناس وليس المتحولين جنسياً فقط بتناوله."

وسأل أحدهم ساخراً "لم لا تنتج بطاطس مهروسة جافة لتنافس تلك السويسرية؟"

أصبح حديثهم فارغاً وتهكمياً ومفككا كلما قل عدد المجموعة. صار الناس أكثر كآبة فقل تفاؤلهم وتضاءل تأثير الخمر وشعروا بيأس شديد وهو الشيء الذي زرعه هذا الشعب في أرضه الصغيرة بل إنه بالفعل أكثر ما قدمه الشعب لها. وقبل أن يصلوا إلى وجهتهم قالوا بتنهيد وابتسامة مرارة أن البطاطس الأيسلندية لن تكتسح العالم إلا بالتفكير الرغبي رغم أنه لا يوجد بطاطس في شتى أنحاء العالم تضاهيها في الطعم والفائدة والجودة.

و قال أحدهم "الأشياء كلها هنا هي الأفضل ولكن لا يعلم أحد في العالم الفسيح بتلك الحقيقة لأن خيرات الأرض لا تشكل تهديداً وليست حرباً أو قنبلة ذرية. إن قتلت الناس مثلما يفعلون في قصص الأبطال فستحصل بالتأكيد على اهتمام دولي."

كانت هناك سحابة صغيرة فوق الطريق الذي سلكوه أمامهم وكانت رمادية وكثيفة أوشكت أن تنفجر بالمطر وعندما سارت بقية المجموعة تحتها هطلت الأمطار بشدة وكادت أن تغرقهم لولا أنهم انطلقوا بالأحصنة سريعاً.

سقطت معظم الأمطار على الطريق وحين نظروا خلفهم لم يجدوا السحابة ولكن برؤيتهم للرقعة المبتلة على الأرض استطاعوا معرفة شكلها في السماء.

أوشك أن يحل منتصف الليل ولكن الشمس سطعت مجدداً بأشعة ذهبية خفيفة.

عاد المزارعون إلى منازلهم على التلال وخرجت الأبقار إلى أطراف المرج ووقفت بجانب البوابة وملامح التعب واضحة عليها من طول انتظار أحدهم ليحلبها فعندما رأت الناس يقتربون أصدرت خواراً مبحوحاً وأطلقت أصوات تألم. وقفت الأبقار في ثلاثة صفوف ورفعت رؤوسها في تناغم وقوستهم إلى الأمام في اتجاه أصحابها وخارت خواراً مرتفعاً و طويلاً وبدا الخوار يحمل تأنيباً وحزناً.

ظنت الفتاة لما رأت الأبقار يتصرفون بعنف أنهم يتحولون إلى كلاب ضخمة ذات أثداء متورمة وحلمات متيبسة. ظنت أن الكلاب عادة تستقبل البشر بالنباح وى تستقبل الأبقار أصحابها بالخوار لتأنيبهم. ما أن غيرت الفتاة ملابسها حتى أُرسلوها إلى المرج لتسوق الأبقار إلى الحظيرة. كانوا يهزون أذيالهم وساروا بطريقة خرقاء وبعند وكانوا يخورون بازدراء وكأنهم يقررون أنه من المفترض أن يُحلبوا قطرات لبن فقط انتقاماً لجعلهم ينتظرون كثيراً طوال الليل.

بمجرد بدء الحلب عاد كل شيء إلى سابق عهده قبل العرض. اختفى العرض في مكان بعيد وكان يوم العرض وكأنه أبعد من البارحة وشعرت الفتاة كيف يمكن للماضي

البعيد أن يكون أقرب إلى الذهن من اليوم الفائت. كان الأمر مشابهاً بالنسبة للمسافات. أغمضت الفتاة عينيها لوهلة لتتخلص من الواقع وتأمل في الرحيل. ذهب خيالها إلى الحقل الذي ركبت فيه الفتاة الألمانية الحصان وجعلته يرفع رجليه الأماميتين ليحركهما مثل العنكبوت ذو الأربعة أرجل. ولكن حين فتحت عينيها كانت في المكان نفسه الذي تواجدت فيه قبل أن تغمضهما. كانت في الحظيرة وسط الأبقار التي خارت وتنشقت بأنفاس عميقة. رأت اللبن يتسرب منهم ليختلط بأنابيب الحلب بالطريقة التي ارتج بها وتدفق بغير رغبة الأبقار إلى حوض التبريد. بدا أن اللبن فضل البقاء بالأبقار بدلاً من وعاء التبريد الدائري ولكن بسبب انتهاك الآخرين لهم لم يتمكن من البقاء في مكانه. لم يسمح لشيء بالبقاء في مكانه الصحيح. إن تمكنت الأشياء جميعاً من البقاء في أماكنها إلى ما لا نهاية فحتماً ستركد الأشياء وتموت.

شاهدت الفتاة اللبن يقطر في الأنابيب وشعرت بقربها من كل شيء. عصف كل شيء بذهنها واختلط بالحزن. من جهة أخرى، بدت الأبقار سعيدة ومرتاحة لتخلصها من اللبن فحين تُحلب الأبقار ترقد تتأوه سعادةً في الإسطبل وتسرح. ثم دخل المزارع الحظيرة وسألها: أتعرفين مكان العامل؟

أجابت "لا" وهي متفاجئة وتذكرت أنها رأته من حين لآخر يتجول حول العرض وأنه انطلق إلى المنزل ولكنه لم يعد لسبب ما.

قال المزارع "إذن فعلينا الذهاب للبحث عنه."
وسألته الفتاة متعجبةً "وأنا أيضاً؟"
فأجاب "أعتقد يمكنك القدوم إن أردت."

الفصل العشرون

كانت الخيول تقف خارج سور المرج وامتطى المزارع والابنة خيلين سريعاً وقررت الفتاة أن تركب الفرس وراءهما بحثاً عن العامل. كانت في المؤخرة وسارت الابنة في المقدمة.

كانت الليلة مظلمة وغطى ضباب ساكن كل شيء ولكن الفتاة استطاعت أن تراقب اتجاه سير المزارع وابنته. فسلكا طريقاً مختصراً وسارا بجانب ضفة النهر إلى مصب النهر والفتاة تسير في الطريق. عند وصولهم إلى المصب انطلق عدد من البجع وغنوا أغنية جميلة تغنيها البجع عند حلول فصل الخريف ولكنها كانت متقطعة. ثم طار البجع في الظلام الحالك. أوقفت الفتاة فرسها لتشاهدهم وهم ينطلقون ويحاولون الطير بصعوبة بالغة ثم هبوطهم ببهجة على العشب الأخضر الناضر وكأنهم من الجنة حتى اختفوا ولم يسمع صوت لهم.

تاقت الفتاة إلى الليل وهي منتظرة فوق ظهر الفرس. شعرت بحنين ورغبة في أن يبقى ذلك الضوء وألا يكون هناك نهار ولا ليل في الدنيا بل أن يسود الشفق في الداخل والخارج وداخلها أيضاً. فُزعت لفكرة راودتها وهي أن العامل لابد وأنه قد مات وحتماً سيختلط بالضباب حاملاً مذكراته. كان قد أخذ مذكراته معه إلى العرض ليبرهن على قدره إن كان محظوظاً والتقى أخيراً بمحبوبة أو برفيقة عمر محتملة. في اللحظة تلك بدا وكأنه حولها في كل مكان مثل جميع الناس المتوفين مؤخراً ومثل جدتها وكان حتى

داخل الفرس الذي جلست فوقه فتخللها الإحساس به عبر دفء ظهر الفرس.

ثم تمنت أن تكون تلك الساعة ساعة حظ وأن تتحول إلى حجر والعالم يقف ساكناً في الضوء هذا في منتصف الليل ولكن كل ما استطاعت الفتاة رؤيته هو المزارع والابنة يسيران بخيل أمامهما و فوق ظهره رزمة.

لم تر الفتاة العامل أثناء العرض مبكراً وكان يحوم في المكان دون جدوى وصار يظهر ويختفي مثلما فعل الجميع ولكنها رأته يسير مع الابنة ووجناته منتفخة وذهنه مشتت.

"ليس لمثل هؤلاء الرجال مكان في الوجود ولن يكون لهم مكان مهما كانوا أذكياء ومجدين." هكذا سمعت المزارع يقول لأحد ولكنها لم تعلم إن كان يقصد العامل بحديثه. وأضاف "إذن فهو أحد هؤلاء الكبار كثيرى الملل الذين لا يستطيعون شرب قطرة خمر دون أن يبكوا بحرقة حتى دون سبب وجيه."

تحول العامل بسماعها لتلك الكلمات إلى سحابة ممطرة في ذهنها كرجل تخفى في صورة أمطار لم تتوقف عن الهطول إلا للحظات قليلة عندما جلس على طاولته في غرفته في المساء ليكتب في مذكراته أحواله العاطفية وما فعله ذلك اليوم. لم يستطع أن ينزل دموعه على ما كتب فكانت ستُمسح كتابته وربما ما كتبه بالحبر كان دموع جافة. أثار ذلك فضولها وقررت أن تختلس النظر في مذكراته صباح غد لتعرف ما حدث أثناء العرض فكانت تعرف أين يحتفظ بها.

جلب المزارع وابنته كومة على ظهر حصان إلى طريق السير بجانب المستنقع وهي تفكر في ذلك. كانت السحب قليلة في السماء وانعكست في المياه المظلمة وكان لونها أفتح من الهواء حولهم. امتصت المياه لون السماء الفاتح وعظمته كالسحر على سطحها الهادئ حيث نمت أزهار الحوذان وامتدت إلى سيقان نباتات الصفصاف الطويلة تنشر أوراقها المرنة الخضراء. جعل الهدوء والسكون المحيط بالنباتات وأسرار جذورها التي امتدت بعيداً في الأرض المسامية الماء أثقل وأعظم من أي ماء آخر.

كان هناك القليل من المركبات على الطرق وأغلبها كانت سيارات الجيب.

صاح شباب سكران من مقاطعات بعيدة عبر النوافذ ضاحكين وسأل أحدهم بصوت حاد "ما كيس القمامة ذلك على الحصان؟"

رد صوت حاد آخر فرحاً "إنه ليس كيس قمامة بل كيس مأساة."

ثم ألقيت زجاجة فارغة في مياه الوحل وابتعدت السيارة وإطاراتها تحتك بالطريق.

في اللحظة تلك بدأت الكومة على ظهر الحصان تتحرك وتئن. كان الصوت في بادئ الأمر تمتمة منخفضة ثم تحول إلى عويل مرتفع مما جعل الحصان يتوقف عن السير ويقوس ظهره ورأسه وينصب أذنيه شاعراً بأنه معرض للخطر وحاول أن يعرف مصدر الخطر بتحريك أذنيه بسرعة في الاتجاهات كلها.

اقترب المزارع وابنته من الفتاة واستطاعت حينها أن ترى العامل فكان منكباً على الحصان وغرس وجهه في شعر عنقه مثلما فعلت الفتاة لما شعرت بانفصالها عن المجموعة على الطريق ولكن العامل بدا مشلولاً وخارت قواه.

صاحت الابنة "تماسك وتصرف كالرجال. إنك تجعل من نفسك أضحوكة."

تذمر العامل وقال "لا أعبأ بأي شيء."

وقال المزارع "هناك، هناك."

لم تعلم الفتاة إن كان المزارع يطلب من ابنته التوقف أو من العامل الذي هدأ عند التحدث مع الآخرين ولكنه ظل محنياً على عنق الحصان.

قل المزارع بحزم "اجلس باستقامة. انتهى الأمر الآن. أرجوك، افعل ذلك من أجلي...كالعادة."

جلس العامل مستقيماً إلى حد ما ولكن مرت سيارة في اللحظة تلك في الطريق ونادى أحدهم الابنة فذهبت إليهم وهي على ظهر الحصان وظل الناس بداخل السيارة. مدوا رؤوسهم عبر نوافذ السيارة ونظروا إلى العامل الذي سقط إلى الأمام مجدداً.

صاح أحدهم من داخل السيارة "هذا العامل نبيل كالعادة. فدائماً ما يصير في تلك الحالة كل صيف."

لم يرد المزارع وجلس ثابتاً على حصانه المتململ وصار الليل مخجلاً وكذلك أصبح ضوء السماء. أصبح كل شيء مخجلاً عدا الأزهار اليقظة التي خرجت من سطح الماء. حتى

الفتاة أرادت أن تبتلعها الأرض ولكنها تحمست لمعرفة ما ستؤول إليه الليلة تلك لأنها لم تشهد أي حدث مماثل لذلك. عرفت الفتاة أنها شهدت مأساة يقع فيها الإنسان في ضوء كهذا ليس الوقت نهاراً أو مساءً ولا ظلمةً أو نوراً ولا سيئاً أو طيباً ولكن يهان الإنسان. بذلك الحدس بدأت الفتاة تبكي. رأى من في السيارة ذلك وقال أحدهم بصوت غير عال ولكنه كان واضحاً في السكون: يبدو أنكم محاطون بأناس كُثيرو البكاء في الصيف المشمس والجاف على غير العادة هذا. لعل البكاء يفيد ابنتك.

لوح الناس في السيارة إلى الابنة وسارت السيارة ببطء حتى تعدي الابنة الطريق دون أن تتأذى. تملك الابنة الغيظ فسارت بسرعة بعيداً عن السيارة وغرست السوط في جانب الحصان واندفعت نحو الحصان ذو الكومة على ظهره ولم يعرف إن كان عليه أن يتحرك نظراً لمأساة الرجل الراكب على ظهره. عندما اقتربت الابنة وهي تضرب بالسوط عالياً اصطدم الحصانان. كان حصان العامل غير مستعداً لمواجهة العدوان هذا فقفز على الطريق وفقد توازنه وارتطم على جانبه في بركة وحل. تحول سطح الماء إلى مرايا سوداء لا حصر لها وصارت في مقابل السماء كأسهم حادة متكسرة على جانب أمواج النور والظلمة الكثيرة. صهل الحصان عالياً وحاول أن يرفع رجليه عالياً ليقفز من المستنقع الضحل وفرد رقبته ورفع رأسه ولكنه بدا عالقاً في الطين غير قادر على الوقوف على أقدامه التي حركها دون سيطرة. سقط العامل تحت الحصان ولم تستطع

الفتاة رؤيته بسبب تناثر الطين في كل مكان. جعل الدوران والتشنج وضرب الأرجل بعنف الفتاة تشعر بدوخة وكانت شبه منومة وأرادت أن تلقي بنفسها في المياه. ثم ظهرت يد العامل من تحت الحصان فجأة وحاولت يده الإمساك بأي شيء مثل أرجل الحصان التي سعت إلى موطئ قدم.

قال المزارع "سيغرق هناك."

ثم لعنه وقفز في البركة.

أمرت الابنة الفتاة "اغربي عن هنا وعودي إلى المنزل. وجرت وراء والدها."

كانا قد غرقا في الوحل وحاولا تجنب ضرب أقدام الحصان ولم يصلا إلى الرجل العالق تحته. تشبعت ملابسهما باللون الأسود للمياه والمستنقع ولكنهما كانا في نفس المكان الذي تناثر فيه الطين واستطاعت الفتاة أن تراقب الحدث. في نهاية المطاف استطاع المزارع أن يتشبث بذيل الحصان في الوقت الذي تمسكت الابنة فيه بشعر عنقه. وسرعان ما استطاعا أن يوقفاه على أقدامه. ما أن وقف حتى ركض سريعاً دون تردد عبر قناة الصرف ورأسه في اتجاه واحد لأن اللجام كان مفكوكاً وكان ينثر الطين ويصدر أصواتاً تحت حوافر الحصان.

صاح المزارع للفتاة "احضريه وأوقفيه."

أطاعته في الحال وقفزت في المستنقع أيضاً رغم أنها عرفت أن من المستحيل أن تلحق به.

غطى المكان هدوء الليل والضوء المنيع لآخر الصيف الذي بدا خيالياً الأرض. عندما توقفت الفتاة وهي مبتلة

وملطخة بالطين نظرت إلى المزارع وابنته ووجدتهما قد تمكنا من شد العامل من المياه وجذبه عبر المصرف وأزهار الحوذان فيه وسحبوه إلى الضفة بجانب الطريق الرئيسي حيث انتظرتهما الخيول في هدوء. لم ينطق أحد منهما. أوشك المزارع أن يرفع العامل على حصانه لكن الابنة قالت في حزم بأنها ستجعله يركب الحصان أمامها هذه المرة فقط.

قال المزارع بمكر "هيا، ألم يكفيك ما فعلتيه اليوم."

أجابت ببطء "سأجعله يركب الحصان أمامي."

رفع الاثنان العامل على ظهر الحصان ولم يظهر العامل رغبة أو مقاومة. ثم امتطيا حصانهما وكانوا جميعاً مبتلين وصامتين.

عندما انطلقوا في قافلة ومروا بالفتاة سمعت العامل يتقيأ فلابد وأنه ابتلع الكثير من الماء وتقيأ عدة مرات. وقالت الابنة "لابد وأن الشراب ذلك بدأ تأثيره يقل تدريجياً أو على الأقل بدأ غباؤك يقل."

كررت ذلك عدة مرات ولكن العامل لم يقو إلى على الاتكاء على الابنة مرهقاً وضعيفاً. لم يبك ولم يحدث أي صوت ولكنه ظل سانداً على الابنة في عجز وهي مبتلة ومغطاة بالطين من المستنقع مثلما كان.

تخلص المزارع من معظم المياه في ملابسه حيث أزالها بكفيه قبل أن يمتطي الحصان وشتم عدة مرات وبدا منزعجاً.

قال "حان الوقت لوضع حد لهذا."

وسار خلف الآخرين.

سارت الفتاة في المؤخرة وداعب ضوء باهت المياه حولها ورأت على السطح الهادئ للمياه سحابة داكنة صغيرة تسبح. أرادت أن تلمسها بقدمها ولكن لما فردت رجلها ولمست المياه تلاشت السحابة بين الأمواج واختلطت بها. شعرت أنها ستنتظر طويلاً حتى تهدأ المياه فسارت في المياه تناثرها ثم إلى الضفة لتركب الفرس. وأدركت أنها لن تستطيع السير مع الآخرين في حدث كهذا وانتظرت طويلاً وتركتهم وحدهم. ظلت هناك في الليل واختبأت على جانب الطريق حتى لا يراها السائقون. انتظر الفرس أيضاً ولم يتحرك حتى وعلب البيرة تُقذف عليه من السيارات لإخافته.

لما استيقظت الفتاة متأخراً في اليوم التالي عن المعتاد وذهبت لتقرأ ما كتبه العامل في مذكراته عندما عاد إلى المنزل لم تجدها في المكان الذي احتفظ بها دائماً فيه تحت الإنجيل الكبير. اختفت المذكرات وعندما لم تجده الفتاة في أي مكان سألت زوجة المزارع عنه بحذر فأجابت "لم يعد من العرض قط فربما يكون قد ترك المزرعة نهائياً ويعلم الرب وحده إلى أين ذهب. هل من المحتمل أن يستقر في مكان ما لفترة طويلة بعد حدوث ما حدث؟"

الفصل الواحد والعشرون

كان المنزل فارغاً عما كان في الأيام الأخرى. كان من السهل الجزم بذلك فالجميع كان صامتاً فكان هناك شيء مفقود. شعر المزارع وزوجته وابنتهما أنهم على الحافة ولكنهمتمالكوا أنفسهم. لم ينجز أي منهم مهامه طوال النهار تقريباً فجاء كلام المزارع لابنته مطمئناً "حسناً إذن، من الأفضل لك أن تصطحبي أطفال المزارع في رحلتهم السنوية إلى الجبل غداً. وبذلك نكون قد أنجزنا هذا الأمر."

أرسل المزارع الفتاة وقت الغذاء لتجلب الفرس من المستنقع حيث كان سينعل أقدامه. عندما وصلت الفتاة إلى الأحصنة لم تجد الفرس واتضح أنه قد هرب.

قال المزارع: سنذهب لنجلبه بالقرب من النهر عندما عادت الفتاة لتخبره بأن الفرس لم يكن هناك.

فسألته متعجبة "أنا؟"

قال "لا"

بدا الآن أنه لم ينشغل بأمر مهم سوى الجلبة التي أثارها بخصوص الفرس.

أجابت الابنة بإصرار "لن أذهب معك هذه المرة ولن تأخذ السيارة لأنني أحتاجها."

سألتها أمها "إلى أين ستذهبين؟"

"أمر خاص"

"بالطبع لن تعودي الكرة؟"

"ما لم ينته لا يُعاد"

قال المزارع "سحقاً، هذا خبر هام."

هزت الابنة كتفيها في لامبالاة.

"ألا تستطيعين استخدام سيارتك؟"

"إنها مُعطلة"

نظرت الابنة إلى والدها وكان وجهه منفعلاً.

فقال للفتاة "يمكنك أن تأتي معي تلك المرة. سنجدف عبر النهر."

قالت زوجة المزارع "إنها ليست قوية بدرجة كافية لتمسك بزمام الحيوان. إنها مجرد طفلة."

فقال المزارع بازدراء "إذن فسيجذبنا الفرس إلى النهر."

سألت زوجة المزارع ابنتها "ألا يمكنك تأجيل خططك لغدٍ؟ أو جلب الفرسِ بالسيارة بنهاية اليوم؟"

ظل المزارع صامتاً.

قالت زوجته "يمكنني أن أذهب معك."

قال المزارع وهو دائخ "ما هذا الهراء؟ يمكنني أنا والفتاة أن نتدبر أمر الفرس وحدنا. "

تبعته الفتاة دون أن يأمرها بذلك. ذهب إلى النهر وكانت تسير خلفه. كان المرج قد جُز والقش جُمع وتحول العشب من جذوره إلى اللون الأصفر. بدأ المزارع يغني ورفع رأسه وهو يسير وأرسل أغنيته عبر النهر إلى الضفة المقابلة والتلال المنخفضة والأراضى المنبسطة والجبال وراءها والتلال التي بها مزرعته التي لم تكن الآن على مرأى منه. كذلك أرسل الأغنية إلى الفرس إن كان قد سبح في النهر ليعبر إلى الجهة الأخرى.

بدأت الفتاة تفكر في ماء النهر ولونه وكان لونه أبيض كاللبن المنزوع دسمه وعلمت أن الماء جليدياً وذاب هذا النهر الجليدي وجرى بتيار في دوامة بين الضفتين.

ركبا المركب دون أن يتحدثا وأصدر المركب صريراً تحت أقدامهم بسبب وزنهما. كان المركب صغيراً بالياً ونفذ منه الماء وملأ بخاصة القطعة الفولاذية التي امتدت على طول قعر المركب وابتلت قدما الفتاة فيه.

قال المزارع بنبرة صوت طبيعية: ابدئي في حزم الأشياء في بالات.

نزل من المركب ليحضر المجاديف ويتأكد من سلامة الأقفال. قامت الفتاة بالتخلص من المياه داخل المركب بإبريق معوج. أصدرت ألواح الخشب صوتاً حاداً جراء احتكاك الإبريق بقعر المركب في محاولة للوصول إلى الماء كله الذي تسرب إلى المركب وسكبته الفتاة في الماء الساكن الذي ضرب الضفة الرملية.

قال المزارع "يكفي ذلك. اجلسي الآن على مقعد التجديف وابقي ساكنة." جلست في آخر المركب ودفع المزارع المركب ثم رفع نفسه على المركب وتسلق بجهد على جانبه. قام المزارع بكل شيء بحساب ولم يجلس ليجدف إلا عندما طفى المركب جيداً وبدأ يدور وكأنه يحاول الارتكاز على التيار. تمايل المركب بحرية حتى وضع المزارع المجاديف. شعرت الفتاة بالخوف وظنت أن التيار سيدفع بالمركب بعيداً وسيجذبه ولن يستطيع المزارع حينئذٍ من التحكم في المركب. استغرق المزارع وقتاً طويلاً يحرك

الأقفال المفكوكة ويتأكد من المجاديف. ولكنه بدا يعرف النهر جيداً وكذلك المركب والتيار وظل هادئاً حتى لما دار المركب في دائرة حيث انحنى ليفرد حذاءه. انحناءة المزارع تلك جعلت المركب يحدد بدء الانطلاق. جين وصل المركب إلى النقطة التي فصلت بين المياه الساكنة والتيار وبدا التيار السريع سيجذبه بعيداً نظر المزارع إلى أعلى ودفع بالمجاديف عدة مرات ووجه المركب إلى المياه الساكنة بطول الضفة. جدف المزارع لفترة ووجهه في مقابل وجه الفتاة ولكن بدلاً من أن ينظر في وجهها سرح ورائها أو خلالها. جدف بأقصى ما أوتي من قوة حتى وصل إلى المكان الذي اعتاد أن ينزل فيه العامل من النهر.

فجأة ترك المزارع المجداف الأيمن وشد على الآخر حتى لمس المجداف الأيسر المياه السطحية بسرعة واندفع المركب إلى التيار. ثم حرك المجدافين بقوة وعمق وجدف المزارع عنيفاً على الجهتين وكان يزفر بانتظام فيما شابه الجارور عندما مد شفته السفلية.

اهتز المركب كثيراً وكأنه خارج عن السيطرة من جراء تجديف المزارع بغضب. بدا أن شيئاً آخر كان في ذهنه أو أنه يستمع إلى الماء تحت القطعة الفولاذية الممتدة بطول المركب. كان يتخيل صوت العمق ويحسب قوته في مقابل شدة التيار. أمسكت الفتاة بإحكام في جانب المركب ونظر المزارع إليها وكانت المرة الأولى وضحك.

وقال "ستغرقين على أي حال إن تمسكت بالمركب أم لم تتمسكي في حال انقلابه."

لم تقل الفتاة شيئاً ولكنها لم تفك قبضتها عن المركب.

وقال المزارع "اجلسي هادئة ولا تمسكي بالمركب فلن ينقذنا شيء إن انتهى بنا الأمر في الماء."

لم تفلت الفتاة يدها من المركب وظل المركب يتمايل ويرتطم بالمياه فتتناثر ويشق طريقه بين الأمواج وكأنه يسير على نتوءات في طريق وعر. لم يقل المزارع شيئاً آخر وتجعد وجهه وهو يجدف وبتركيزه الشديد أصبح هو الإرهاق ذاته.

وفي لحظة وجدت الفتاة أنهما قد هربا من التيار السريع ووصلا إلى المياه الهادئة بالقرب من الضفة الأخرى. شعرت بارتياح وامتلأ ذهنها بالبهجة. كانت الجهة تلك ساكنة في حمى ضفة تربتها عالية. شمت الفتاة رائحة العشب الرطب و العطر اللاذع لنبات الخلنج وأرادت أن تنزل من المركب بأقصى سرعة لتشعر بالأرض الصلبة تحت قدميها. ولما رآها المزارع ضحك ضحكةً متفهمةً ولكنه لم يقل شيئاً. ذهب في اتجاه الضفة ببطء وجدف بالمجاديف وواصل النظر إلى جانبه ليرى أنسب مكان على الضفة ليرسو فيه. عندما شعر باحتكاك المركب بالأرض نزل منه وأمسك بجانبه بقوة بيد واحدة وسحبه دون جهد إلى الرمال. احتك الحصى الناعم والصغير بأسفل المركب مصدراً صوتاً حاداً.

وقال "هيا يا فتاة انزلي. هل بللت نفسك؟"

أجابت "لا"

"إذن فلديك القدرة على السير في البحر."

ثم سارا على التل في طريق ضيق للسير وتقدم المزارع وتبعته الفتاة. ثم بدأ يغني مرة أخرى وبصوت أعلى من غنائه على الضفة الأخرى من النهر.

سارا لوقت طويل على الأرض الرابية وليس في طريق السير لأن المزارع اتخذ طريقاً مختصراً. كانت الأرض مبتلة ويصعب السير عليها ولكن انبعثت منها رائحة زكية للنباتات التي اندمجت مع المياه الموحلة ومع صوت أحذيتهم عليها. بدأ المزارع يلهث وتوقف عن الغناء وبدأ يشدو. كان المزارع مبتهجاً على غير العادة ونظر إلى الفتاة من آن لآخر بسرور. وكان في الغالب لا ينظر إليها في المنزل إلا عندما كان يأمرها بإنجاز مهمة ما. إلا أنه لم يتحدث قط وواصلا السير على هضاب صغيرة جافة برزت من الأرض المبتلة. توقف المزارع عن السير وهو فوق إحدى الهضاب وتأمل الفراغ من حوله لوهلة وقال "يا إلهي."

ثم واصل طريقه وسارا لوقت طويل حتى وصلا إلى حقل ورأت الفتاة الفرس يرعى مع أحصنة أخرى. تظاهر المزارع أنه لم ير الحصان الفار ولم تجرؤ الفتاة على لفت نظره لأنه ليس من حقها الإشارة إلى شيء قد تغاضى عنه حتى لو كانت رؤيتها أفضل منه. ثم ساروا حول تل كبير ورأوا المزرعة على مد البصر.

حيا الناس في المزرعة المزارع دون أن يتوقفوا عن العمل وكانوا يندفعون إلى الأمام والخلف ولكنهم ظلوا يتحدثون معه في مقتطفات مجبرين إياه أن ينظر في جميع الاتجاهات ويدور في المكان باستمرار حتى يتحدث مع من يتحدثون

معه. رأت الفتاة أن المزارع أوشك على الانفجار وكان على حافة العودة فكان من الواضح أنه شعر بأن استقباله كان مهيناً. ربما ظنوا أنه من غير اللائق أو الضروري القدوم أول الأسبوع في اليوم التالي للعرض وفي الوقت المزدحم بالعمل. كما أن ذلك علامة من علامات سوء الفلاحة وهي عدم القدرة على الاحتفاظ بالفرس في مكانه والفشل في جعله يرتبط بصاحبه حتى وإن كان الفرس يستخدم كحصان تحميل.

وكاد أن يودع الناس حين توقفت امرأة عن عملها في المزرعة وقالت "حسناً، لدينا زائر."

شعر المزارع بارتياح ودخل مع الآخرين داخل المنزل. سأله الناس عن ابنته وهم ينتظرون القهوة وإن كانت بصحة جيدة مما جعله يمسمر في مكانه. أجاب "بخير" ولكنه غيَر الموضوع. بدأوا يتحدثون في أمور شتى حتى طال الحديث فحينئذ وقف المزارع وانصرف.

لم تنطق الفتاة بكلمة وعندما ساروا حول التل في الطريق المقابل والمؤدي للخيول ظلت صامتة أيضاً. نظرت الفتاة للفرس بأمل وكان يرعى في طمأنينة دون أن ينظر إليهما. لم يرفع رأسه قط. اقتربا منه وتوقعت الفتاة أن يهرب ويركلهما برجليه الخلفيتين تاركاً إياهما مغطيان بالدماء على العشب ومهشمة جمجمتاهما.

اقترب المزارع من الفرس الذي واصل الرعي وكأنه يحاول قضم أكبر كم من العشب في مراعيه بدياره قبل أن يُلجم ويُساق بعيداً. وهكذا فعل. لما وقف المزارع بجانب

الفرس رفع رأسه أخيراً من الأرض وألبسه المزارع اللجام بسرعة حول فمه دون أن ينطق بكلمة وساقه بعيداً.

لم يُبد الفرس أي مقاومة أو ردة فعل بل لم يقاوم الزمام على الإطلاق.

لم يهتم المزارع بالمعاناة التي تكبدها ولا الجهد الذي بذله بسبب الفرس. ساق المزارع الفرس في الطريق نفسه فوق الهضاب وعبر الأراضي المبتلة إلى النهر. ولم يغن هذه المرة. استغربت الفتاة أن كليهما لم يبد أي علامة غضب. لم تفهم لم هرب الفرس رغم أن المزارع ما كان عليه سوى أن يجلبه ويسوقه مثل الحمل ليعود إلى السجن. ولكنها فكرت أن لابد وأن هكذا هو الحال في الريف وأن العلاقة بين الإنسان والحيوان كانت على ذلك النحو.

"حسناً" هكذا قال المزارع الذي ساق الفرس إلى النهر.

ركبت الفتاة على سطح المركب.

وقال المزارع "امسكي بالزمام الآن فسأجدف وعليك أن تتمسكي به. ثم انطلق بالمركب."

مسكت الفتاة الزمام وحملق الفرس في الهواء وهز أذنيه واستمع لشيء.

قال المزارع وهو يريها كيف تجلس مشدودةً "اجلسي على الناحية الأخرى من المقعد هكذا واجعلي ظهرك ناحيتي. اضغطي بقدميك على الجانب وتمسكي حين يبدأ الفرس في السباحة. يصبح الأمر صعباً عندما يُشد الزمام. والآن أصبح هناك شيء تفعلينه بدلاً من الجلوس خائفة. أتفهمين؟"

فعلت الفتاة ما أُمرت به بالضبط. جلست بالعكس في المركب ناظرة في عيني الفرس الذي سار بطيئاً بالزمام الطويل يتبع المركب الذي تحرك بعيداً عن مرساه. كانوا في مياه ضحلة ولكن ازداد عمق النهر ورفع الفرس رأسه. سار المركب بموازاة الضفة.

قال المزارع "ها هنا نحن. تمسكي به لأقصى حد الآن."

في اللحظة تلك أمال المزارع المركب تجاه التيار وازداد عمق النهر فجأة وشعرت الفتاة بأنها تُسحب حيث قاومها الفرس بشدة وصهل وغمرته المياه. تمسكت الفتاة بالزمام بكل ما أوتيت من قوة ورغم أن الفرس كان يسبح بشدة إلا أن جسمه غرق في المياه المائلة للبياض. ثم بدأ يصهل بصوت مرعب واتسعت عيناه وشع الفزع منهما.

تصرف المزارع وكأن شيئاً لم يحدث وواصل التجديف سريعاً وكان يزفر الهواء في الجارور بشفته السفلية.

اقتنعت الفتاة أن الفرس سيغرق في قاع النهر. كان ثقيلاً وصعب عليه البقاء طافياً لوقت طويل في تيار شديد كهذا. ولكن الفتاة لم تترك الزمام رغم أنها كانت متأكدة من أن الفرس سيسحبها إلى مؤخرة المركب نحوه. على أي حال كانت على شفا ترك الزمام أو النداء بفزع "إنه يغرق" وفي تلك اللحظة نظرت بالصدفة إلى الفرس ونظر هو إليها والفزع في عينيه وغمرته المياه أكثر وهو مستسلم لها وكأنه شعر بكل شيء يخونه من بشر وطبيعة على حدٍ سواء. فأفضل حل كان أن ينتحر. شعرت الفتاة بتعاطف

شديد تجاه الفرس وشعرت بالكراهية تجاهه في الوقت نفسه.

ثم نظرت بقلق إلى المزارع إلى جانبها. وضحك ضحكة باردة فنظرت إلى الفرس. والآن كان أنفه الداكن والمتسع فوق المياه يصهل.

قال المزارع باستياء للفتاة وهو يضربها بطرف حذائه ليؤكد كلامه "تمسكي جيداً به وإلا سيسحبك من المركب."

استعادت الفتاة قدرتها على الحديث لهذا السبب وقالت متأوهة "لن يستطيع الفرس أن يعبر. سيغرق."

أجاب المزارع ساخراً "نعم سيغرق نفسه. لن يقتل الحيوان هذا نفسه إنه مجرد حيوان مدلل ويريد أن يشفق عليه الغير."

صارعت الفتاة من أجل التنفس.

وقال المزارع "كذلك تفعل الحيوانات. فهي تستطيع أن تصل إلى الضفة عندنا مثلما تستطيع العبور بسهولة إلى الضفة الأخرى. إن الأمر يشبه السباحة الصعبة. إن كان الفرس بمفرده وأراد أن يعبر النهر فسينظر لنفسه دون أي شفقة."

شعرت الفتاة بسكينة وأرادت أن تغط في نوم. كانت قد فقدت الإحساس برجليها المتيبستين اللتين ضغطت بهما على جانب المركب لتبقى في أمان ولكنها أرادت أن يسحبها الفرس من المركب إلى النهر وتخيلت أنها ستركب على ظهره في الحال وسيسبح كلاهما لسنين وسنين في

ظلمة البرد نهاراً وليلاً حتى يستيقظوا يوماً ما في صباح جديد وستكون الفتاة جالسة بهدوء على ظهره وسيكونان قد وصلا إلى المحيط اللا نهائي وسيذوبان في أمواجه وشمسه المشرقة.

ثم وصلوا إلى المياه الهادئة على الضفة المقابلة. قفز المزارع مباشرة من المركب وربطه بالمرسى. خرج الحصان من النهر لامعاً ورائع الجمال وأخذ المزارع بزمامه. لم ينظر الفرس وراءه حتى على الضفة الأخرى لموطنه في الماضي وهو صغير ولكنه جرى بخطوات ثقيلة وفقد طبيعته المخبأة وجماله ورغبته في الموت وأصبح حصان تحميل مطيع وعادي مرة أخرى. كذلك حام حول سور المرج وعاد إلى مجموعة الخيول الأخرى وكأن شيئاً لم يحدث وكأنه لم يهرب.

قال المزارع للفتاة: حسناً، يمكنك أن ترتاحي بقية اليوم. غداً أهم أيام الصيف.

جلست الفتاة بجوار ضفة النهر تسلي نفسها بالطبيعة هناك وتفكر.

الفصل الثاني والعشرون

ساروا في شكل جماعة إلى حدٍ ما على ضفاف النهر فساروا على ضفة النهر الكبير والنهرين الآخرين الصغيرين ثم إلى ضفة النهر العريض الذي جرى متعرجاً بين الجبال. وفي الطريق مروا بالإسطبلات التي رُوض بها الخيل غير المُروض بعد. كانت الفتاة الألمانية تجلس على ظهر حصان في الحقل المقابل. أراد الأطفال أن يشاهدونها وهي تروضهم ولكن الابنة أمرتهم بأن يلتزموا بالنظام.

وقالت "نحن في طريقنا اليوم إلى الجبال وليس لمشاهدة عرضاً لتدريب الأحصنة وأضافت أن لا طائلٍ من زيارة الإسطبلات فالحصان يستغرق ترويضه وقتاً طويلاً."

كان هناك شاباً مع الفتاة الألمانية وكان يرعى الأحصنة. عندما توقفت المجموعة على الطريق نظر الشاب تلقائياً إليهم وحملق فيهم لوقت. ثم قام بإمساك زمام حصان وركبه حتى وصل إلى الضفة التي بها حصاً بين الحقلَ عند الإسطبلات وضفة النهر وكانت المسافة التي قطعها كبيرة.

وحياهم قبل أن يصل إليهم. تعرفت الفتاة عليه على الفور فكان هو الشاب ذاته الذي رأته في العرض مرافقاً للفتاة الألمانية وكان قد استقبل تحية الابنة بطريقة غريبة حتى أنها تذكرت كيف حرك يداه بتلقائية متظاهراً بالإمساك بالتحية وكيف أحكم عليها قبضته.

ولكن حيا هذه المرة بعضهما البعض بتحفظ ولكنه سُر لرؤية الأطفال.

وقال "إذن فقد أوشك الصيف على الانتهاء بدليل حضوركم جميعاً إلى هنا."

ثم سار الاثنان جنباً إلى جنب على ضفة النهر حتى وصلا إلى منزل لم يكن كبيراً ولكنه تميز عن سائر البيوت لسوء حالته. كان الحديد المموج الذي غطاه صدئ في مناطق عدة وكان من المنازل الخشبية القليلة في المقاطعة. أغلب المنازل الآن تبنى من الطوب. ولكن بدا المنزل أن ساكنه لم يكن مزارعاً تقليدياً ربما من شدة حالته البالية فضل المزارع ألا يرممه ولكنه عاش في كوخ قديم بدلاً منه.

رحب بهم رجل كبير السن وكان قصير وممتلئ الجسم ولكن ليس ببدين. كان له شارب وعينان بنيتان كبيرتان وكان صوته عالياً جداً ولكن ليس بحاد وبدلاً من أن يحي الأطفال تحدث إليهم وكأنهم أصحاب المزرعة.

قال الشاب "سلموا على والدي."

قال الأطفال للرجل "أهلاً" وظنت الفتاة أن الرجل كبير في السن ليكون والداً لشاب في عمر ابنة المزارع. عامل الرجل ابنه بالطريقة التي يعامل بها الرجال ممن أصبحوا آباء في سن كبيرة وأنجبوا من نساء أصغر كثيراً منهم سناً. بدا الشاب وكأنه حفيد الرجل أو ابن زوجته. إلا أن مولد الشاب كان ضربة حظ لم يصدق الرجل حدوثها وزد على ذلك أن يكبر الشاب ليبلغ مبلغ الرجال. عامل الرجل الابنة بلطف وبدت وكأنها ابنته وليس الشاب.

خرجت امرأة في منتصف العمر من المنزل وقالت للأطفال أن يتركوا أحصنتهم داخل الإسطبل ثم حيت ابنة المزارع بطريقة محايدة. نظر الرجل لها نظرة تقدير حين رآها وأعطت المرأة انطباعاً واضحاً بأنها زوجته وربة المنزل وقبل أن تستضيفهم داخل المنزل جعلتهم يشاهدون بعض الزهور. نظرت الابنة إليهم دون اهتمام. لم تحب الابنة الأزهار ولم تهتم يوماً بصعوبة جعلها تنمو في هذه المنطقة. على أي حال كانت المرأة مسرورة بالأزهار وكذلك سعد الرجل لسعادة زوجته الصغيرة.

قالت الابنة للأطفال أن يبقوا في الخارج حتى تناديهم ليأخذوا المشروبات.

قالت المرأة "نعم، فقط العبوا في الخارج."

ثم دخل الكبار إلى المنزل.

كان كل شيء داخل المنزل مُرتب ولكن بال ومنظم حسب المنطق وكذلك كانت الأشياء خارج المنزلً والسور أيضاً. لم يكن هناك شيء جميل سوى أزهار الزينة التي لم تنمو حتى في الحديقة ولكن نمت تحت جدار المنزل. لم تفهم الفتاة هذا الوضع ولكنها سمعت الناس يتحدثون عن المزرعة هذه باحترام وتقدير ولكن عندما رأت المنزل لم يخلف انطباعاً طيباً لديها على الإطلاق. كان الرجل فقط من شعرت الفتاة بتقدير له ولكنها لم تعرف السبب.

ركض الأطفال في المكان ولحقت الفتاة بهم ولكنها لم تستطع أن تقرر ما إن كانت ستذهب إلى مكان ما بمفردها

أم تنضم للأطفال وتذهب إلى الجبل. تسلق الأطفال بعض الهضاب ذات صخور بارزة ولكنها ملَت من اللعبة هذه.

لم يبد الجبل هائلاً ولا عظيماً مثلما بدا من المزرعة التي مكثت فيها. كانت المنحدرات عادية لأقصى حد ولم تكن شديدة الانحدار وغطاها عشب. لم تر حتى ارتفاعه ولا قمته وكانت الشمس ساطعة. تمددت الفتاة في منخفض عند سفح إحدى الهضاب ثم سارت إلى المنزل وقررت ألا تصعد إلى الجبل. كان الرجل قد خرج من المنزل حينئذ وبما أنه كان منشغلاً بشيء ما لم يلاحظها أو ربما لم يبال برجوعها.

في المدخل كان هناك درجٌ منحدرٌ يوصل إلى الطابق العلوي. كانت المرأة تتحدث في أمور المنزل بالمطبخ. وكان الآخرون حتماً يشربون القهوة.

وقالت المرأة "نعم، اشربوا قبل أن أنادي الآخرين ليدخلوا. "

عزمت الفتاة ألا تدخل المطبخ ظناً منها بأنها ستزعجهما. لم يرها أحد فقررت أن تلقي نظرة على المنزل عن كثب فصعدت إلى الطابق العلوي. خلعت الفتاة حذاءها حيث توقعت أن يصر الدرج وصعدته بطيئاً. صر الدرج بالفعل ولكن الناس اعتادوا دون شك على سماع صرير منخفض فلم يجذب الصوت انتباههم. لم تخفض امرأة في المطبخ صوتها ولم يتحدث الرجال ولكنهم استمعوا إليها بالطبع وليس لصوت الصرير على الدرج. عندما وصلت الفتاة لأعلى وجدت ردهة صغيرة وكان هناك أربعة أبواب لغرف مفتوحة قليلاً. دخلت الغرف على

التوالي. احتوت الأولى على أشياء قديمة والثانية على سرير كبير غير مرتب وقديم وكان كل شيء داخلها مبعثر ولكن كان بها كتب كثيرة. كان هناك طاولة كبيرة في منتصف الغرفة الثالثة وعليها حاسب آلي تعارض مع ما أحاطه من أشياء. كان هناك كتابة على الشاشة وحاولت الفتاة أن تقرأها ولكنها لم تفلح. كانت الغرفة صغير نسبياً ومشرقة وبها كرسي مريح ذو ذراعين وزهرة واحدة فقط على الطاولة. ثم دخلت الغرفة الرابعة وكانت أكبرهم وشبه مظلمة. عندما نظرت إلى يمينها وجدت امرأة جالسة على كرسي بجانب سرير آخر غير مُرتب. كان كل شيء قديم الطراز وغطى السرير أغطية كثيرة. كانت الغرفة تلك من الغرف التي لم يسمح لأحد أن يلمس بها شيئاً. لم يكن هناك وسيلة لمعرفة عمر المرأة ولكنها غالباً كانت في عمر التلال حتى وإن لم يظهر وجهها الناعم ذلك. كانت تحمل مشطاً كبيراً أسوداً وتأملته في حجرها. نهضت وتلمست طريقها في الظلام لما رأت الفتاة والمشط بيدها. تراجعت الفتاة ليس خوفاً من المرأة ولكنها تذكرت كلمات أمها "احذري من الأمشاط في الريف فلما كنت هناك كنا نصاب بقمل الرأس بسببها."

رغم أنها عرفت أن ذلك هراء إلا أنها تراجعت خطوتين إلى الوراء. دخل النور الغرفة عبر نافذة كبيرة ولكن الطلاء كان قديماً فحجبه. مدت المرأة العجوز المشط نحو الفتاة مجدداً دون أن تنطق. ثم مررت المرأة يدها في شعرها ولكن الفتاة لم تتحرك قط. كانت ابتسامة المرأة ثابتة

ودافئة. وبالنظر إلى ملامحها قد تكون والدة الرجل وجدة الشاب. كانت عيناها بنيتان أيضاً ولكن حاجبيها كانا كبيران. رفعت المرأة المشط مرة أخرى وسمعت الفتاة المرأة في الطابق السفلي عند الباب لأنها نادت الأطفال ليشربوا بعض المشروبات. وسمعت الفتاة الابنة والشاب وهو يقول "هيا نذهب بعيداً والأطفال يملئون بطونهم."

وفجأة اتضح أنهما صعدا إلى الطابق العلوي. لم يحدثا أي ضوضاء بسبب الضجيج الذي أحدثه الأطفال.

أوقفت المرأة الذراع الذي أمسك المشط وكأنها تستمع إلى صوت أقدامهم وإن كان الصوت نابعاً من غرفتها أو من إحدى الغرف الأخرى وإن صح ذلك فمن أيهم. ولكن صوت الأقدام لم يقترب. وهمس الشاب "لا تخافي فهي في عالم آخر."

بدأ نبض الفتاة يتسارع وأصبح كل شيء هادئ ومريب حولها. تسللت إلى باب الغرفة التي كانت فيها واختلست النظر إلى الردهة. كان باب الغرفة ذات السرير مغلق الآن. مشت الفتاة على أطراف قدميها وتنصتت على الباب وسمعت الشاب يقول "لقد افتقدتك كثيراً."

قيلت الكلمات بنبرة حزن وخسارة نبعت من حزن وخسارة وبكاء. شعرت الفتاة بتلك المشاعر تحيط المكان وأصبح المكان رطباً. سُمعت صلصلة خف الخيل النحاسي أو المصنوع من الحديد. ودخل الرجل المنزل وقال شيئاً لزوجته فأجابت "ذهبا إلى الخارج."

كرر الشاب الجملة بالطريقة نفسها ولكن الابنة لم تتحدث وظلت صامتة. ثم صدر صوت تلمسها لملابسها وقال الشاب "ليس الآن. إني مُثار جداً ولن يفلح الأمر."

فقالت "لا أهتم."

واصل الشاب يهمس بأشياء ويزيد من سخونة الموقف بكلامه فتراجعت الفتاة إلى غرفة المرأة العجوز. وما أن رأتها المرأة حتى رفعت المشط. كادت الفتاة أن تقترب منها لترى ماذا أرادت ولكنها لم تفعل.

وهمست "أتريدين أن تمشطي شعري؟"

لم تجب المرأة. وقفت الفتاة دون حركة تراقب المرأة التي وضعت المشط في حجرها وتأملته جيداً. ثم تسللت الفتاة إلى الردهة واستمعت عبر الباب. كان همسهم قد توقف والآن كانا يتحدثان بشبه همسات مثلما يفعل الناس عند حدوث ما أخفوه. وبما أن الأمر قد انتهى وليس من المؤكد أن شاهدهما أحد فيتحدث الناس حينئذ بصوت منخفض كإجراء حذر ثم تكتسب أصوات المذنبين طبقة طبيعية وما أن يصبح أكيداً أن أحداً لم يستمع إليهما فيتحدثان بصوت عال على غير العادة للتأكيد على الشهود المحتملين أن شيئاً لم يَحدث مهما اعتقدوا العكس. سمعت الفتاة والديها يفعلان كذلك.

تحدثت الابنة الآن وسكت الشاب.

لم تعرف الفتاة عما تحدثا ولم تستطع المتابعة. كانت قد ظلت في غرفة المرأة العجوز طويلاً معطيةً إياهما الفرصة ليفعلا ما هو أفضل أن يظل بذهنها بدلاً من أن تراه أو

تسمعه أو تقلده مع شخصٍ آخر ففي نهاية المطاف ما زالت الفتاة طفلة.

قالت الابنة "استمع للحظة. لا...، ليس مجدداً... حصلت على واحدة منه هنا."

همس الشاب "لا...، ليس الآن..."

قالت الفتاة بإصرار "نعم، استمع. إن كلماته أفضل مما تأتي به من حديث... فهي تهزني أكثر من تلك..."

صمتت الابنة ومر وقت قصير ثم أصدرت صوتاً وكأنها تبتسم وهي تزفر شديداً عبر أنفها. "لا"

وقال"ربما، ولكن الأفضل لذلك أن تأخذي وقتاً كافياً وإلى متى ستستمرين..."

قالت "أعتقد أن أي شخص يتمنى أن يموت ليسمع جملة كتلك."

"إذن فمن كاد يموت أو أراد الموت لم يمت، بل مات من أراد أن يعيش لكلماته أو كلماتها."

لم يقل الشاب شيئاً. سُمعت ملابسهما وهي تصدر صوت خشخشة وتحدثا بصوت طبيعي.

قالت "انظر، استمع فقط إلى هذه." وبدت أنها تقرأ من شيء: أشياء قليلة أفضل من يد تلمس جسداً لاسيما يد شخص غير مألوفة ولكنك تشعر بأن اليد تنتمي لذلك المكان... المكان الذي تلمسك فيه... تلك ليست اليد التي تمتلك ولا اليد التي تأخذ. إنها يد من سالف الدهر...

تجمدت الفتاة في مكانها.

لم ينطق كلاهما.

سألته الابنة "ما تعليقك على هذا؟"

قال "نعم، ولكنها لا تشير إلى الحب. ليس الحب الجسدي ولا الروحي."

"إلى ماذا تشير إذن؟"

"ليس حبك ولا حب أي مخلوق ولكن حب الموت."

سكتت الابنة فجأة ولم يسمع صوت من الغرفة. فُزعت الفتاة وخافت فنزلت الدرج مسرعةً. خرجت المرأة من المطبخ وقالت "آه، أكنت في الطابق العلوي؟"

مرت بجانبها الفتاة بطيئاً وحاولت ألا تظهر شيئاً.

"ألن تشربي شيئاً مع الآخرين؟"

لم تجب الفتاة. ذكَرها شيءٌ ما بوجوده في ذاكرتها فتجولت عبر المرج وعبرت السور ودون أن تقرر بدأت تتسلق الجبل.

الفصل الثالث والعشرون

أخذها خيالها في المرحلة الأولى من الصعود إلى قمة الجبل عبر الروابي التي برزت من الجبل والتي توجتها صخور سقطت من الصخر المتقلقل تدريجياً على المنحدر ذي العشب. كانت الصخور كنتوءات سوداء كبيرة على جسم الجبل. صعدت الفتاة بينها وواصلت طريقها رغم أنها لم تعرف إلى أين تتجه ولم تعرف إن كان هناك طريق محدد بين المنحدرات ولكنها تمنت أن تصل إلى القمة إن ظلت تصعد في طريق مستقيم. قررت الفتاة ألا تنظر وراءها ليس من خشية الخرافات وظنها بأنها ستتحول إلى صخر بل بسبب الطبيعة تحتها فإن رأتها على ارتفاع من فوق المنحدرات ستبدو جميلة للغاية ومن ثم ستكتفي الفتاة بتأملها في ضوء الشمس.

كان الطقس حاراً وبدأت الفتاة تتعب من السير. كانت ترتدي ملابس ثقيلة حيث إنهم قرروا قضاء اليوم بأكمله في الخارج وأحياناً كان الطقس بارداً في المساء عند غروب الشمس كما أن الناس يشعرون بالبرد أكثر وهم يركبون الأحصنة. خلعت الفتاة بعض ملابسها وكان العشب مريحاً تحت قدميها وتعجبت من مقدار نموه وخصوبة المنحدر رغم مقابلته لجهة الشمال وأنه حتماً يُضرب برياح شديدة البرد في الشتاء. وكان هناك رقع على مسافات متباعدة خالية من العشب بفعل الرياح حيث كان لونها بني كلون التربة وبها حصى. حاولت الفتاة أن تسير بين تلك الرقع بعد أن حاولت اختصار الطريق فسارت على رقعة طين وعلق

الكثير منه بأخمص قدميها مما أثقلها ولكنها سارت واستغرقت وقتاً طويلاً لتكشط كتل الطين من أعقابها مما اضطرت لفعله فحذاؤها كان زلقاً ليُمشي به على العشب.

والآن كانت الفتاة قد تسلقت عالياً حتى أنها شعرت بالخوف من المرتفعات. لم يكن خوفاً حقيقياً إلا عندما تخيلت النظر تحتها ومعرفتها بأنها وصلت إلى ارتفاع يصيب بالدوار فسعدت لذلك.

واصلت الفتاة الصعود لوقت طويل فظنت أنها اقتربت من القمة ولكنها لم تقترب بعد. سارت لوقت ولكنها فكرت في الاستسلام والجلوس لتستريح. كان الهواء لطيفاً وخفيفاً حولها وأعطى انطباعاً وكأن المساء سيحل وإن جلست فلن تنهض أبداً و حتماً ستنام ولن تصل إلى القمة ولن تنزل من فوق الجبل. سارت رعشة في جسدها من جراء تلك الفكرة ولكنها دفعتها إلى الأمام.

وفجأة اختفى العشب في مساحات كبيرة وحل مكانه طحلب لونه كلون عشب الملاك الأخضر وحصى صخري ليس به أي نبات. ثم دخلت حزاماً منخفضاً من الضباب تسلل إلى الأرض بلونه الرمادي ولمس الصخور. سارت الفتاة على هذا الحال لوقت قصير وهي تفكر أن لابد أن الضباب ذلك هو الذي التف بالجبل تحت القمة قليلاً وامتد في سحابة من جرف الجبل ودار إلى النهر أسفله فعلمت الفتاة أنها سرعان ما ستتخطى الضباب وتستقبلها قمة الجبل المشمسة. ولكن عندما انقشع الضباب وكشفت خيوطه الرمادية عن قدمي الفتاة وتوقعت أن ترى القمة

أمامها، لم تجد شيئاً سوى منعطف من الصخور والحصى على امتداد بصرها.

لم يعد الصعود صعباً تحت قدمي الفتاة كما كان من قبل كما أن السير أصبح أكثر سهولة فالهواء الذي ضرب بظهرها كالنسيم الخفيف ثم كرياح أصبح الآن تياراً قوياً من الرياح يدفعها إلى الأمام. رفعتها تلك الرياح ودفعتها إلى الأرض البور.

ظنت في نهاية الأمر أنها وصلت إلى القمة رغم أنها لم تلحظ قمة مدببة. كان هناك نباتات كثيرة وحرك الهواء النباتات القصيرة تلك.

صار الطقس أهدأ تدريجياً ثم أصبح ساكناً تماماً. شعرت الفتاة بانزعاج وشعرت بمدى إرهاقها بعد توقف الرياح عن دفعها إلى الأمام في الطريق ولكنها قررت ألا تجلس. علمت الفتاة أنها بمفردها وأن أحداً لا يعرف مكانها فإن حدث لها مكروه عليها أن تعتني بنفسها وإلا ستموت وحدها دون أن يساعدها أحد. بدأت الفتاة وهي تتعثر في المشي وقدماها متقرحتان من المشي أن تتوق لرؤية البحيرة. لابد وأن البحيرة في مكان ما هناك رغم غرابة وجود بحيرة على سطح جبل. كان الانحدار في جهة الجنوب واستنتجت الفتاة أنها في طريقها إلى النزول وسارت لوقت طويل ولكن البحيرة لم تكن موجودة. كان الجبل في نظر الفتاة لا نهاية له حيث توالت التلال والروابي وارتفع عالياً فبدا محلقاً في السماء. ورأت الفتاة الأرض في الأسفل من الجهة الأخرى بغير وضوح في ضباب حرارة الطقس. وفكرت الفتاة أن منزلها

يقع في مكان ما على مسافة لانهاية لها وحاولت أن تركز على الأشياء غير المرئية ولكنها رأت المناظر الطبيعية والجبال والأنهار المتألقة ولم تميزها على الإطلاق. بدا كل شيء بعيداً بغرابة عنها.

سارت الفتاة الآن على فرش من الطحلب به كتل من نبات الخلنج ولكن لم يكن به توت. لم تجد الفتاة حولها أي كائن حي من طير أو حيوان. كان العالم وحده بعيداً ولم يكن جميلاً ولا قبيحاً. أرادت الفتاة أن تستلقي على الطحلب وأن يسحقها الفراغ حولها ولكن خطر بذهنها أنها ستقابل العامل في مكان ما وسيأتي إليها وهو ميت عبر فرش الطحلب ولكنه لم يأت. لم يأت أحد مهما حاولت أن تجعله ينضم إليها أثناء السير بمذكراته وكانت ستقول حينئذ "أخيراً قد أتيت..."

لم تسمع الفتاة صوتاً ولا حديثاً وظنت "لا يمكن أن تكون البحيرات على قمم الجبال هنا متشابهةً."

تفحصت الفتاة المكان حولها ورأت أن الجبال ارتفاعاتها مختلفة وفكرت "ليس صحيحاً أن نفقاً خفياً يربط بينهم في بطن الأرض ويوصلهم ببعضهم البعض. إن كان هناك أية بحيرات على قمم الجبال فلابد أن هناك بحيرة على قمة كل جبل لأن البحيرات كذلك حتى تلك الموجودة حيث يعيش البشر."

ولكنها لاحظت شيئاً أمامها وكانت قد وصلت إلى حافة منحدر لتل ولم تستطع تفسير الطبيعة في سفح الجبل

فالشمس كانت ساطعة ولكنها لاحظت رقعة ملساء أمامها وبها شيء يشبه ماءاً.

تملكها الخوف والفزع ولكن دفعها الفضول إلى نزول المنحدر ومن ثم لم يكن هناك لبس فكانت بحيرة كبيرة إلى حد ما ماؤها أزرق يميل إلى اللون الرمادي وبها نباتات تشبه الطحلب البحري ولكن من المستحيل أن يكون كذلك فالبحيرة بعيدة جداً عن البحر وتقع على قمة جبل إلا في حال أن مياه البحر جرت في أنفاق تتصل بالمحيط.

إن ألقيت بنفسي في البحيرة فستبتلعني وستسحبني المياه في النفق وسأستغرق وقتاً طويلاً في الطريق في أحشاء الأرض ولكنني سأظهر فجأة على السطح وسأرى... أنني عدت إلى موطني.

ثم سمعت خروفاً يثغو فنظرت إلى البحيرة ووجدت خروفاً يقف عندها ومعه حمله. كان يقف على أرض عالية مغطاة بعشب أخضر أو نبات البردي وامتد جزء منها في البحيرة. في بادئ الأمر أرادت الفتاة أن تذهب إلى الخروف ولكن منعها الخوف من التقدم. لم ترد المخاطرة بالاقتراب من الماء.

كانت الشمس ساطعة وهادئة في الصمت. لم تشعر الفتاة بهدوء مماثل للسكون الرهيب هذا. كانت في عالم آخر ساده النبات والبحيرة والنباتات شديدة الاحتمال بالإضافة إلى هذا الخروف الذي أتى بحمله معه. بل اقترب الحمل من أمه التي شمته ورأت أن رائحته كانت في قمة الجمال فهو ملكها.

سارت الفتاة بحذر على جانب التل المليء بالعشب وثبتت نظرها إلى الخروف لتمنع اختفائه كالسرابواقتربت من البحيرة. استطاعت الآن أن ترى النباتات والسكون بشكل أفضل. وقف الحمل هادئاً ومطمئناً بجانب والدته التي انحت نحو شيء ما في العشب واصطدم قرناها فيه. ثم بدأت تدحرج كرة متفككة من الصوف الرمادي أمامها.

تساءلت الفتاة "ما هذا؟"

ثم سمعت تياراً مرعباً ولم تعرف من أين أتى صوت التدفق هذا. عصف الصوت كعاصفة شديدة من كل الاتجاهات. ثم رأت ظلاً عملاقاً فوقها وفي اللحظة نفسها انقضت بجعة بيضاء كالثلج على الخروف. حدث هذا في سرعة البرق. فرد الطائر جناحيه على العالم بأسره وضرب بهما قوياً في الوقت الذي قوس فيه عنقه والتف في السماء. ضرب جناح الطائر ضربةً جبارةً أفقدت الخروف توازنه وتدحرج على جانبه في عجز. حاول الحمل أن يجري إلى الخروف ولكن عادت البجعة وضربته كالرعد بجناحيها الهائلين فقُذف بعيداً في البحيرة. ثم صارع الخروف ليقف على أقدامه وقفز بعيداً.

ارتفع الطائر ورفع جناحيه عالياً في قوس وتقدم نحو ما ظنته الفتاة كرة من الصوف ولكنها رأت أنه ليس بكرة بل أوز لم ينبت ريشه بعد وكان للبجعة التي مكثت بين نبات البردي هناك. ظلت البجعة رافعةً جناحيها طويلاً وتفحصت المكان ليس خوفاً من هجوم الخروف بل لأن

الأجنحة المرفوعة رمزٌ للنصر. كانت البجعة هي صاحبة البحيرة.

ثم انطلقت البجعة مجدداً. ألقت الفتاة بنفسها على الأرض واستطاعت أن تشعر بالتيار فوقها وظنت أن البجعة سترميها إلى السماء بجناحيها الهائلين وتلقي بها في البحيرة مع الخروف ولن تستطيع حينئذٍ السباحة للشاطئ وإنقاذ نفسها فستغطيها النباتات وستغرق. أغمضت الفتاة عينيها وانتظرت ولكن الخفق اختفى وعاد الهدوء والسكون مرة أخرى. لم يكن هناك صوت. نظرت الفتاة أعلى ووجدت الشمس مازالت ساطعة. لم يكن هناك أثر للبجعة ولمعت الطبيعة عند سفح الجبل في الضوء المشرق آخر النهار.

فكرت: اقترب المساء. وانطلقت عائدة في الطريق نفسه. استطاعت أن تتبع آثار قدميها في الطحالب. "سأسير إلى الأمام في الطريق نفسه ثم سأنزل."

وهكذا انطلقت. كان الجو هادئاً وساكناً كما كان من قبل وكان الطقس لطيفاً وبدأت تشعر بنسيم خفيف. سارت فيه بعيداً ولكن بدأ النسيم يتحول إلى رياحٍ قويةٍ. استطاعت الآن أن ترى من فوق الجبل الريف يحيطه سطوع الشمس وكان الضوء أكثر إشراقاً من الضوء عند الجانب الآخر من الجبل. كانت تنتظر الظل ليهبط عليها والبجعة لتغطيها وتدفعها من الجبل بجناحيها ولكنها سارت على قدميها رغم أنهما قد أرهقتا ولكنها استطاعت أن تمضي بهما. استطاعت أن ترى الأرض المنبسطة وكأنها تنظر

أسفل إلى أعماق مائية شاسعة. رأت الحلقة الضبابية تحتها بمسافة صغيرة وتوجهت إليها. قامت الرياح بتحيتها وجرت كنهر عظيم. كانت تحاول دفع الفتاة إلى الوراء على حافة الجبل مباشرة إلى البحيرة ولكن المنحدر كان لأسفل وسارت قدماها عليه وتغلبت على الإرهاق. علمت أنها ستصل إلى وجهتها مهما كانت منهكة. لذلك فردت الفتاة ذراعها. رفعت الرياح تنورتها وتمسك البرد بجسدها العاري ولكن الفتاة استحوذت على الهواء وشعرت بأنها تطير إلى الأمام والحلقة الضبابية تغمرها ولكنها عبرتها بسهولة. ثم رأت كل شيء في لحظة: البانوراما والمنزل الواقع عند سفح الجبل ولاحظت أن الخيول كلها قد ذهبت عدا خيل ابنة المزارع ورأت أيضاً شيئاً لم تستطع تفسيره. رأت الفتاة البجعة البيضاء كالثلج تطير أمامها لتريها الطريق.

جوثبرجر بيرجسون

ولد الكاتب عام ١٩٣٢ في جريندافيك وهي قرية ساحلية تقع جنوبي غرب أيسلندا. درس في أيسلندا وأسبانيا وحصل على درجة في الأدب من جامعة برشلونة عام ١٩٥٨. نُشر أول كتاب لبيرجسون تحت عنوان "الفأر المتسلل" في ١٩٦١ ولكن رائعته في الحداثة "توماس جونسون: الأكثر مبيعاً" جعلته أحد الكتاب الرواد في أيسلندا. ألف بعد ذلك ما يزيد عن ٢٠ رواية ومجموعات قصصية قصيرة. يعد بيرجسون مترجماً معروفاً أيضاً واشتهر بترجمة أعمال كتاب مشهورين عالمياً إلى الأيسلندية مثل: ميغيل دي سرفانتس و جورج لويس بورجيز و غابرييل غارسيا ماركيز.

الجوائز:

١٩٦٧- الجائزة الأدبية لصحف أيسلندا.
١٩٧٨- جائزة كُتاب جهاز الإذاعة الأيسلندي.
١٩٨٣- الجائزة الثقافية لأفلام الحركة الحديثة: ما زال القلب يسكن في كهفه.
١٩٩٧- جائزة الأدب الأيسلندي: الأب والأم ولغز الطفولة.
٢٠٠٤- الجائزة الأدبية للمجلس الاسكندينافي.
شهادة تقدير من الصليب الملكي الأسباني.
رُشح بيرجسون لنيل جوائز أدبية عدة: الجائزة الأدبية للمجلس الاسكندينافي في ١٩٧٥ و١٩٨٢ و١٩٩٣ و٢٠٠٠ وجائزة أريستيون في ١٩٩٩ بالإضافة إلى جوائز أدبية أيسلندية أخرى.